مَظَاهِرُ الاعتِنَاءِ بِمُوطّأ الإمامِ مالك بن أنس عِندَ أَعلَامِ جمعيّةِ العُلماءِ المُسلِمِينَ الجَزائِرِيِّينَ

إعداد وتقديم الدكتور مراد خنيش

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بقسم الكتاب والسنة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة.

ورقة علمية مقدمة للمشاركة في فعاليات الملتقى الوطنيّ الموسوم بـ:

عناية الجزائريين بموطّأ الإمام مالك

(التاريخ – الامتداد – الآفاق)

الذي سيُعقد يومي 07– 08 من ماي 2025م

في رحاب كلّية أصول الدين

بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة – الجزائر.

مقدّمة:

يُعَدُّ البحثُ في جهود أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين وإسهاماتهم العلمية كشفًا وتعريفًا، تقديمًا وتوصيفًا مجالاً جليلاً من مجالات البحث في العلوم الإسلاميّة في الجزائر، وقد قامت الحاجة إليه حفظًا لجهود الأمّة، وصونًا للعلوم من الضّياع.

ولقد حفل التّاريخُ الجزائريُّ الحديثُ بأسماء أعلام لامعة، وشخصيات علمية بارزة، اصطفاها الله تعالى لخدمة البلاد والعباد، وحراسة مقوّمات الهوّيّة الإسلامية الجزائريّة، وصونها من التّشويه، وتحريرها من قيود الجهل وسيطرة الاستعمار.

فكان من هؤلاء البارزين الشّيوخ المصلحُون، والأساتيذُ الكبارُ، والعلماء المتفنّنون، باعثُو النّهضة الحديثة في في الجزائر، وخدّام العلوم بها، شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين وتلاميذهم من بعدهم.

فقد ذاعَ صيتُهُم، وعمَّ خيرُهُم، وشاع أثرُهُم، في الإصلاح والتعليم، وهداية النّاس بالقرآن الكريم، وسنّة النبيّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التّسليم.

ولقد كان اعتناؤهم بمصادر التشريع بالغًا، واهتمامهم بمراجع الفقه الإسلاميّ بارزًا، واحتفاؤهم بمسالك التعليم ومدوّناته واضحًا.

وكان من مدوّنات الحديث والفقه التي اعتنوا بها اعتناءً، واحتفوا بها احتفاءً موطّأ الإمام مالك بن أنس رحمه الله، فقد كان لهُ حضورٌ عند أعلام الجمعية في كثير من أعمالهم وكتاباتهم، في مجالات مختلفة ومناسبات متعدّدة، ومراحل مختلفة، سواء كان ذلك بعد تأسيس جمعية العلماء، أو قبل ذلك في مراحل الدراسة والرحلة والتكوين.

وتلك مظاهرُ لابدّ أن تدلَّ على مكانة الموطّأ عند أعلام جمعية العلماء، وتكشف عن مشاركتهم علماء الأمة في الاعتناء بالموطّأ وخدمته، وصون مكانته وقيمته.

كلُّ ذلك حملَني على البحثِ في الموضوع، محاولاً استجلاء مظاهر الاعتناء بالموطّأ عند أعلام الجمعية تحت عنوان:

(**مظاهرُ الاعتناء بموطأ الإمام مالك بن أنس عند أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**).

ولا أزعم الاستقراء التّامّ لمادّة البحث، أو الإحصاء لكلّ الأخبار الواردة في توصيف جهود هؤلاء الأعلام وإسهاماتهم العلمية والتدريسيّة والإصلاحيّة... ولكن حسبي أنّي اجتهدت في ذلك، وسعيتُ في تحصيل ما أمكن ممّا توفّر لي من المصادر والمراجع.

أوّلا: أسباب اختيار الموضوع: كانت وراء ذلك أسباب أخرى، أهمّها:

1– أهميّة البحث في موطّأ الإمام مالك، وفي إسهامات علماء الجزائر في خدمته والاعتناء به.

2– قلّة الأخبار والمعلومات حول مظاهر العناية بموطّأ مالك عند أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين.

3– مكانة جمعيّة العلماء العلمية المتميّزة، وقيمة جهودها التعليمية والتدريسية في مرحلة عصيبة من مراحل التاريخ الجزائريّ.

4– التّنكّرُ الحاصل لجهود أعلام الجمعية في خدمة السنة ومدوّناتها ومصادرها الأصلية، وعلى رأسها الموطّأ.

ثانيًا: إشكالية الموضوع: مِن أَجْلِ ما سبق وغيره انطلقَ هذا البحثُ من التّساؤل عن طبيعة الاعتناء بالموطّأ عن أعلام الجمعية، ومدى تميّزها في ذلك.

وَتتفَرّعُ عنها أسئلةٌ أخرى:

1- لماذَا البحثُ عن هذا الموضوع اليوم ؟

2- وما هي طبيعة الاعتناء بالموطّأ عند أعلام الجمعية؟

3- وما هي الإضافة المسجّلة في اعتناء الجمعية بالموطّأ؟

4- وهل ثمّة مظاهرُ اتّفاق أو اختلاف بين أعلام الجمعية؟

ثالثًا: أهدافُ الموضوع: كان العمل في هذا الموضع هادفًا على وجه أساس إلى:

1- التعريف بمظاهر الاعتناء بالموطّأ عند أعلام الجمعية.

2- إبرازُ التّميّز في بعض مظاهر الاعتناء وصوره.

3- الإفادة بمظاهر الاعتناء بالموطّأ عند بعض تلاميذ الجمعية.

4- توجيه الأنظار وشحذ الهمم للتعيف بجهود أعلام الجمعية وخدمة تراثهم هذا الباب.

رابعًا: خطة الموضوع: من أجل بلوغ أهداف البحث ومقاصده لابدّ أن ينتظم العمل ضمن خطّة جامعة لأطرافه، موضّحة لأفكاره، تجتمعُ في سبعة مطالب تتقدّمتها مقدّمة وأعقبتها خاتمة، وخصّصتُ كلَّ مطلبٍ للحديث عن مظاهر الاعتناء بالموطّأ عند علم من الأعلام، على النحو الآتي:

المطلب الأوّل: مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الإمام ابن باديس.

المطلب الثاني: مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الإمام الإبراهيميّ.

المطلب الثّالث : مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشيخ أبي يعلى الزواوي.

المطلب الرّابع : مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشّيخ العربيّ التّبسّيّ.

المطلب الخامس : مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشّيخ مبارك الميليّ.

المطلب السّادس : مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشّيخ أبي بكر الحاج عيسى الأغواطيّ.

المطلب السّابع: مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشّيخ أحمد حمّاني.

خامسًا: المناهج المتّبعة: وتصويرًا لفكرة العمل أكثر، وتحقيقًا لمقاصده، اعتمدتُ منهجين:

1- المنهج الوصفي: يحضرُ في توصيفِ بعض مظاهر الاعتناء بالموطّأ من خلال الأخبار والنّصوص المحفوظة.

2- المنهج التّحليليّ: يتدخّل عند التناول التحليليّ لعبارات العلماء والمترجمين، والأخبار الواردة في عنايتهم بالموطّأ، قصد الاستفادة منها في تدوين مَلَاحظ وَتَلمُّس ملامح، واستنتاج أفكار...

سادسًا: الدّراسات السّابقة: أمّا الدّراسات الخاصّة بهذا الموضوع فلم أرها بهذا العنوان وتلك المقاصد والأهداف، والله أعلم.

إلاّ ما نجدهُ من معلومات وأخبار في آثار أعلام الجمعية، وجرائدهم ومجلّاتهم، وبعض الدّراسات التي أشارت لتلك المظاهر لِمَامًا.

ولم أغفل الاستفادة منها كلّها أو جلّها، كما لم رجعتُ إلى أصول بعض الدراسات ومصادرها.

سابعًا: الإضافة العلمية المرجوّة: لا أزعمُ أنّ الموضوع جديد من كلّ جوانبه، ولكن أزعمُ أنّهُ حقيقٌ بأن يُفردَ بدراسةٍ، وتُبرزَ إسهامات أعلام الجمعيّة في خدمة الموطّأ والاعتناء به والاستفادة منه، من روايته وحفظه، والتعريف بمكانته، والاستدلال بأحاديثه، وشرحه وتقريب فقهه، والدّفاع عنه وعدم التنكّر لَهُ، على أن يكون ذلك في عملٍ علميٍّ منظّم، وفق إطارٍ منهجيٍّ محدّد...

هذا وقد بذلتُ الجهد في تكميل البحث وبنائه، فإن وُفّقتُ فمن الله سبحانه، وإن أخطأتُ فمنّي ومن الشيّطان الرّجيم، وأستغفرُ الله الغفور الرّحيم، وصلّى الله على نبيّنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مهادٌ في التذكير بدراية أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين بالسّنة النبويّة ودواوينها:

لقد كان أعلام جمعية العلماء كغيرهم من علماء الأمّة في العناية بالسّنة النبويّة حفظًا وشرحًا ونشرًا ودفاعًا عنها، ويكفي في ذلك دليلا أنّ جرائدهم مليئة بنشر السنة وخدمتها والدفاع عنها، ونبذ البدعة والخرافة ودفعها، كجريدة الصرّاط السّويّ، وجريدة السنة النبويّة المحمّديّة، وجريدة الشّهاب، وجريدة البصائر، وغيرها.

كما كان نهج الجمعية في إصلاح الواقع الديني والاجتماعيّ مبنيًّا على الاهتداء بهدي القرآن الكريم وهدي سنّة النبيّ الكريم.

ولعلّ مثالُ ذلك وشاهدُهُ ما ورد في سجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين ما نَصُّهُ:"... أمّا إصلاح الكتب فإنّ عمدة الجمعية في التذكير على كتاب الله، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام، ومدرّسوها ما منهم إلا من له في العلم مقام معلوم. وهم يلتزمون في تذكيرهم الأحاديث التي صحّت أسانيدها ومتونها. ودواوين الحديث الصحيح المعتمدة موجودة متوافرة، فلا عناء في هذا الباب.

ومن بركات جمعية العلماء على هذا القطر أنّ أمهات التفسير الموثوق بها وكتب الحديث الصحيحة راجت بين الناس، وعمرت الخزائن، واكتسحت تلك الكتب التي ضلّلتِ الناس وقتلت مشاعرهم. وأنّ الأحاديث الصحيحة بدأت تُتداولُ على الألسنة، وتُتناولُ في المجالس، وتُرصّع أحاديث الناس في مواطن الاستدلال، وأنّ رواية الحديث بدأت تنتعش"[1].

وفي تقرير في كيفية الدعوة والإرشاد ألقاهُ الشيخ العربي التبسيّ يقول: "... ثمّ الكلام عن السنّة نذكر فيه أنّ الله تعالى جعل لرسوله وظيفة بين الكتاب فنعدّها شارحة له مبيّنة لمراد الله في كتابه فبحكم أنّ السنّة شارحة للقرآن لا يصحّ لمرشد أن يستغني أو يجهل هذه السّنة. فمن لا اطّلاع له على كتب السّنة، ولا خبرة له لأقوال علماء السلف لا يصحّ أن يُعدّ من ورثة الأنياء، لأنّ الإرث إنّما يدخلُ فيما كانوا قائمين به. وأظنّ أنّ هذه الكلمة الموجزة تخرجُ تسعًا وتسعين في المأئة ممّن يعدُّون أنفسهم علماء في هذا الوطن.

فبانَ من هذا أنه يجب على رجال جمعية العلماء الذين قد نصبوا أنفسهم لإرشاد الأمة أن يُقبلوا على الكتب العزيز تفهمًا وعملا، وعلى السنة المطهّرة اطّلاعا وتحصيلا من الكتب الصحيحة المؤلّفة في أقواله وأفعاله وأخلاقه صلى الله عليه وسلم وعلى هدي السّلف الصالح استعانة بأقوالهم وسيرًا وراءهم. ويومئذ تكون الجمعية قد أخذت الميراث النبويّ بحقّ. وإذا أخذته بحقّ فإنّ الله يأتي بثمراته، ويعود الإسلام إلى جدّته"[2].

يقول الشيخ مُحَمَّد خير الدين:"فإنّ مكانة الإبراهيمي في العربية وفقهها، وتضلّعه في آدابها وفنونها مكانة لا يدانيه فيها أحد في العصر الحديث.

---

[1]- سجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام "نادي الترقّي" بالجزائر، ، جمعه الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، دار الكتب، ط1 (1963م) الجزائر، ص 67.

[2]- سجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام "نادي الترقّي" بالجزائر، دار الكتب، الجزائر، ص 150.

وعلمه بتفسير القرآن وأسرار التنزيل، وبالحديث وعلومه، وبالفقه وأصوله، وباللغة العربية وآدابها، يجعله في مصافّ الأئمّة الأعلام.

أمّا فنُّهُ في الخطابة والكتابة، فيُعدُّ مدرسة قائمة بذاتها فريدة من نوعها، تذكّر بمجد العربية في أزهر عهودها..."[1].

وبعد هذا التمهيد أعرضُ أفكار البحث وقضاياهُ مُستَجليًا مُوثِّقًا مظاهر الاعتناء بموطّأ مالك بن أنس عند أعلام الجمعية، وذلك عبر المطالب الآتية:

المطلبُ الأوّل: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الإمام الرّئيس عبد الحميد بن باديس: وهي مظاهرُ كثيرة، تدلُّ على تنوّع عناية ابن باديس بهذا الكتاب العظيم، وكلُّ ذلك سنبيّنُهُ فيما يأتي:

المظهر الأوّل: اعتناؤهُ بالموطّأ استجازة وإجازة: وهو ما سأبيّنُهُ عبر العناصر الآتية:

أوّلا: الاستجازة في الموطّأ: إنّ استجازة الإمام ابن باديس في الموطّأ ثابتة، واتّصالهُ بموطّأ مالك محفوظٌ، **فإنّه رحمه الله يتّصل بموطأ الإمام مالك** "بإجازة الشيخ مُحَمَّد بخيت المطيعيّ عن عبد الرحمن الشربيني عن إبراهيم السقا عن الأمير الصغير عن والده الأمير الكبير عن عليّ بن مُحَمَّد العربي السقاط عن شارحه مُحَمَّد الزرقاني عن والده عبد الباقي الزرقاني عن علي الأجهوريّ عن مُحَمَّد بن أحمد الرملي عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عن الحافظ ابن حجر العسقلاني عن نجم الدين مُحَمَّد بن علي بن عقيل البالسي عن مُحَمَّد بن علي المكفي عن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الدلاصي عن عبد العزيز بن عبد الوهاب بن إسماعيل، عن جدّه إسماعيل أبو طاهر عن مُحَمَّد بن الوليد الطرطوشي عن سليمان بن خلف الباجي عن يونس بن عبد الله بن مغيث عن أبي عيسى يحي بن يحي بن يحي عن عمّ أبي عبد الله بن يحي عن أبيه يحي بن يحي اللّيثيّ الأندلسيّ عن الإمام مالك ﷺ"[2].

ثانيًا: الاجازة بالموطّأ: وأمّا إجازات الإمام ابن باديس لغيره بالموطأ فقد أفاد البحثُ بما توصّل إليه – إلى الآن– ، وهي:

1– إجازتُهُ الشّيخَ عليّ البوديميّ المسيليّ ثمّ التّلمسانيّ رحمه الله: قال الشّيخ البوديميّ[3]:"... فهذا جزء لطيف في ذكر أسانيدي **عن العُلماء المحقّقينَ**، جعلته تذكرة لنفسي، ولِمن هم في الله أخوتي من المسلمين، وسمّيتُهُ: "صلة الموصول بحديث الرسول ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ورجائي في الله أن يقبله، وينفعني والمسلمين، آمين.

---

[1] – مذكرات الشيخ مُحَمَّد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د، ط)، 2 /129.

[2] – ثبت الأمير الكبير، وهو العلامة المتفنن أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد السنباوي المالكي الأزهري المعروف بالأمير الكبير، تحقيق مُحَمَّد إبراهيم الحسين، دار البشائر الإسلامية، بيروت– لبنان، وينظر: الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم،بيروت6 لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م)، ص 178.

[3] – هو الشيخ علي بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد القادر بن بوزيان بن المبارك بن الموب البوديميّ الخلوتيّ المسيليّ الجزائريّ، ، نسبة إلى القطب الكبير المشهور عند أهل الحضنة وأولاد دراج (المسيلة) بالولاية والصلاح المُحَمَّد البوديميّ الذي ينحدرُ من نسل الشيخ مُحَمَّد بن عزوز الدليمي المذكور في البستان عن علماء تلمسان. ولد بالمسيلة سنة (1329 هـ/ 1909م)، قرأ القرآن في مدرسة أبيه بالمسيلة وتلقى مبادئ العلوم على والده، وعلى جماعة من الشيوخ المتعاقبين بالزاوية وغالبهم أجازه كوالده، ثمّ انتقل إلى زاوية الهامل ببوسعادة ثم انتقل إلى قسنطينة فزاول دروسه على رجال فطاحل في العلم فلازمهم سنين عديدة وأجازوهُ بشهادات بخطوط أيديهم ، ثمّ هاجر إلى تونس فاستكمل معارفه بجامع الزيتونة ثم

وقد ذكر إجازات العلماء والشيوخ له في الصّحاح السّت، ثمّ ذكر بقية ما له من الأسانيد والإجازات عن جماعة من أئمة العلم والحديث، فقال: " ... كذلك لي اتّصال بأسانيد الحديث النّبويّ عن شيوخ آخرين مبرّزين في العلم والرواية والدّراية"[1]، فذكر جماعةً، منهم شيخَهُ بنَ باديسَ فقال: "... ومنهم في وَقتِ مُزاولتي لدُرُوس القواعد على الشّيخ عبد الحميد بن باديس **قَرأتُ عليه الموطأ أيضًا بقسنطينة – دِرايَةً وَرِوايَةً– مِن أَوّلِهِ إلى ما جاء في ذكر الله[2]**، وكانت دِراستي على الأستاذ المذكُورِ نحو سِتّ سَنواتٍ، وقد أَجَازني في ذلك رحمه الله"[3].

2– إجازتُهُ الشّيخ أبا بكرٍ شُعيب بن عبد الله الجليليّ التّلمسانيّ إجازةً عَامَّةً: وهي أوّل إجازة صَدَرت مِن الشّيخ ابن باديس، أَجازَ بِهَا القاضي أبا بكر مُحَمَّد شعيب بن عليّ بن عبد الله الجليليّ التلمسانيّ وأولاده وأولاد بنيه، بجميع صحيح البخاري إجازة تامّة مرضيّة على شروطها المقرّرة المرعية، بسنديه عن شيخه مُحَمَّد حمدان الونيسي

قفل راجعا إلى مسقط رأسه بالمسيلة متصديا للتدريس فدرس في زاوية أبيه وزاوية بوجملين التي لا تخلو من الطلبة المسافرين ثمّ انتقل إلى جعافرة زواوة بطلب منهم فدرس فيها نحو سنتين ظهر فيها على يده فتح كبير للمتعلمين، ثمّ انتقل إلى غيلزان مدرسا برغبة من أهلها، ثمّ انتقل إلى مستغانم، ثمّ دعته جماعة من أعيان تلمسان أن يقدم عندهم للتدريس والتربية فأجاب دعوتهم لذلك، واستقلّ بنفسه وأسّس زاوية كبرى بتلمسان، فأقبلت الناس لإقبالا عظيمًا بما كان يقوم به من تعليم العلم،من مؤلفاته: إماطة اللثام عمّا نشأ في الحاضرة التلمسانية من الشكوك والأوهام والشقاق والخصام (طبع بالمطبعة العلوية بمستغانم سنة 1939م)، والقول المؤيّد بالدلائل الفقهية الملمّة في تفنيد مزاعم من يرى بطلان الصلاة خلف المفتين والأئمة (طبع بالجزائر سنة 1953م)، وصلة الموصول بحديث الرسول ﷺ، مطبوع بتحقيق مصطفى ضيف، وغيرها... توفي سنة 1409 هـ/ 1988م). ينظر– بتصرّف– : إجازات حديثية جزائرية (وضمنها إجازة علي البوديميّ التلمساني الجزائريّ للشيخ العيفة العياضي السّطيفي الجزائريّ)، اعتنى بها مصطفى ضيف، دار التوفيقية للنشر والتوزيع ، المسيلة– الجزائر، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، ص 161. وقد استفدتها أولًا من الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم،بيروت– لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م)، ص 183.

[1]– إجازات حديثية جزائرية (وضمنها إجازة علي البودليميّ التلمساني الجزائريّ للشيخ العيفة العياضي السطيفي الجزائريّ)، اعتنى بها مصطفى ضيف، دار التوفيقية للنشر والتوزيع ، المسيلة–الجزائر، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، ص 161. وقد استفدتها أولًا من الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم،بيروت– لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م)، ص 183.

[2]– نصّ الإجازة هذا يفيدُ أنّ الشيخ البودليميّ لم يقرأ على ابن باديس الموطّأ كاملا، بل قرأ أقلّ من نصفه، وهو ما عدّتهُ نحو 15 كتابا منه ، وهي في الموطّأ:(كتاب وقوت الصلاة، كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب السهو، كتاب الجمعة، كتاب الصلاة في رمضان، كتاب صلاة الليل، كتاب صلاة الجماعة، كتاب قصر الصلاة في السّفر، كتاب العيدين، كتاب صلاة الخوف، كتاب صلاة الكسوف، كتاب الاستسقاء، كتاب القبلة، كتاب القرآن (باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن، باب الرخصة في قراءة القرآن على غير وضوء، باب ما جاء في تحزيب القرآن، باب ما جاء في القرآن، باب ما جاء في سجود القرآن، باب ما جاء في قراءة قل هو الله أحد وتبارك الذي بيده الملك، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى)، فهذا العدد من كتب الموطّأ يعني أنه لم يقرأ عليه 37 كتابًا وثلاثة أبواب باقية من كتاب القرآن وهي: (باب ما جاء في الدعاء، باب العمل في الدعاء، باب النهي عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر). ينظر: الموطّأ، تحقيق مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات، ط1 (1425 هـ / 2004 م).

ثمّ إنّ قول الشيخ البودليميّ : " قَرأتُ عليه الموطّأ أيضًا بقسنطينة – دِرايَةً وَرِوايَةً– " فإنّ الدّراية لا بدّ أن تتضمّن بعض الشرح أو التعليق، أو بيان الغريب أو استدلال أو إيضاح، وهو صورةٌ مِن صُور الاعتناء بالموطّأ يُضافُ إلى جهود الشّيخ ابن باديس في خدمة الموطّأ.

[3]– إجازات حديثية جزائرية (وضمنها إجازة علي البودليميّ التلمساني الجزائريّ للشيخ العيفة العياضي السطيفي الجزائريّ)، اعتنى بها مصطفى ضيف، دار التوفيقية للنشر والتوزيع ، المسيلة– الجزائر، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، ص 161. وقد استفدتها أولًا من الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم،بيروت– لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م)، ص 183.

وعن الشيخ العلامة سالم بوحاجب، وذلك خلال زيارته له إلى تلمسان، كتبها عشية الأربعاء 3 جمادى الآخر 1337 هـ/ 5 مارس 1919م. **وذكر ابن باديس أنّ القاضي شعيب قد أجازهُ إجازةً عامّةً** كَتَبَهَا لَهُ بخطِّهِ في نفس اليوم **بعدَمَا قَرَأَ عليه شَيئًا مِن أوَّلِ البُخاريّ في بيته"**[1]

المظهر الثاني: احتفاؤهُ بمنهج الإمام مالك في الموطّأ: وقد وقفتُ له على نصٍّ جليلٍ يجلّي هذا الاحتفاء ويُبرزُهُ، وذلك قولُهُ رحمه الله: في مقال له بعنوان: (صلاح التّعليم أساس الإصلاح): "...**وإذا رَجَعتَ إلى مُوطّأ مالك** سيّد أتباع التابعين فإنّك تجدُهُ في بيان الدّينِ **قد بَنَى أمرَهُ على الآيات القُرآنيّة وما صحَّ عندهُ من قول النّبيّ ﷺ وفعله، وما كان من عَمَلِ أصحابِهِ** الذي يأخذُ منه ما استقرَّ عليه الحالُ آخرَ حَياتِهِ. لأنّهم كانوا يأخذُونَ بالأحدَثِ فالأحدثِ مِن أمرِهِ. وكذلك إذا رجعت إلى كتاب الأمّ لتلميذ مالك الإمام الشافعي فإنّك تجدُهُ قد بَنَى فِقهَهُ على الكتابِ وما ثَبَتَ عندهُ من السّنّة. وهكذا كان التّعلّم والتّعليم في القُرُون الفُضلى مَبناها على التّفقُّهِ في القُرآن والسّنّة... "[2].

ويقول ابن باديس أيضًا في ختام درس ختم الموطأ: " ها إنّ مالكًا- رحمه الله تعالى ورضي عنه وجازاهُ عنا أحسن الجزاء- قد ختم كتابه الجليل بهذا الحديث الشّريف المشتمل على هذه- الأسماء النّبويّة الكريمة فهل هنالك من نكتة؟ إنّ هذا الموطأ هو أقدم كتاب لنا ألّفه إمام عظيم من أتباع التّابعين، وهو كتاب يعلمنا العلم والعمل ويعرفنا كيف نفهم وكيف نستنبط وكيف نبني الفروع على الأصول، يعطينا هذا كله وأكثر منه بصريح بيانه وبأسلوب ترتيبه للأحاديث والآثار والمسائل. وإنّ شرّاح هذا الكتاب الجليل لم يوفوه حقّه- في نظري القاصر- من هذه الناحية وهي من أعظم نواحيه.

وممّا هو مشهور من ابتكار مالك في كتابه هذا الكتاب الجامع الذي ختم به الموطأ، فإنّه نظر إلى مسائل عديدة من أمّهات الشّريعة في العقائد والأخلاق والآداب والأحكام وغيرها فنظّمها في سلك واحد وسمّاها بالكتاب الجامع، وهذه الأصول التي نظّمها في هذا الباب بنى عليها من جاء بعده فُرُوعًا وعَقَدَ عليهَا أبوابًا كالبُخاريّ وغيره"[3].

وهذا الاحتفاءُ بالموطّأ في هذا الباب -الترتيب والاستدلال- هو الذي عَبّرَ عنهُ جامعُ آثارِ ابن باديس والمعرّفُ بها الدكتورُ عمّار طالبي في تقديمه لآثار ابن باديس، فقد قال: "**فعبدُ الحميد بن باديس مُفسّرٌ للقرآن** تفسيرًا سلفيًّا يُراعي فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقرآن، وبيان السّنّة لَهُ، وعلى أصول البيان العربي وسننه، والنّفاذ إلى لغة العرب وآدابها، وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنسانيّ، وتطوّر التّاريخ والأمم.

---

[1]- ينظر: إجازات حديثية جزائرية (وضمنها إجازة علي البودليميّ التلمساني الجزائريّ للشيخ العيفة العياضي السطيفي الجزائريّ)، اعتنى بها مصطفى ضيف، دار التوفيقية للنشر والتوزيع ، المسيلة-الجزائر، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، ص 161. وقد استفدتها أولًا من الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم،بيروت- لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م)، ص 181- 182.

[2] -آثار ابن باديس ، 3/ 218.

[3]- الشهاب، ج7، المجلد 15، ص 344 (غرة رجب 1348هـ- أوت 1939م، وينظر: آثار ابن باديس ، 2/ 308.

وهو محدِّث من الطّراز العالي لا يستشهدُ إلّا بالأحاديث الصّحيحة المسندة إلى الصّحاح السّت، إلى البخاريّ أو مسلم، **أو الموطّأ الذي اهتمّ به، واعتَبَرَ منهجَهُ في الاستدلال خيرَ المناهج، فَدرَّسَهُ وختَمَهُ** كما خَتَمَ القُرآن في رُبع قرن"[1].

المظهرُ الثالث: برمجةُ تدريس شرح الحديث النّبويّ الشّريف من الموطّأ لطلبة ابن باديس ضمن برنامج المواد الدّراسية الخاصّ بالتّعليم المسجديّ: وذلك لمّا طوّر ابنُ باديس منهاج تدريس الطّلبة سنة(**1355هـ – 1936م**) وصدر بيانٌ آخر يبيّنُ تطوّر التّعليم " فأصبح يشمل بالإضافة إلى ما سبق ذكرُهُ، على الفرائض والجغرافيا والتاريخ والأصول والمواعظ وبين لنا فيه الكتب التي تدرس وهي: **الموطّأ**، وأقرب المسالك، والرّسالة، وابن عاشر، والمفتاح، والزّنديويّ، والتنقيح، والسّلم، والمكوديّ، والقطر، والآجرومية، والزنجاني، واللّامية، والسّعد، والجوهر المكنون، ومن ديوان الحماسة، ومن ديوان المتنبّي، والأماليّ، ومن مقدّمة ابن خلدون"[2].

وقد ذكر الدّكتور عبد القادر فضيل **والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان**– وهذا الأخير من أخبر طلاب ابن باديس ببرامج الموادّ المدرّسة– أنّه" تشتملُ الدّرُوس التي كانت تدرّسُ في الجامع الأخضر وفروعه على: أ– تفسير القرآن وتجويده. ب– **شرح الحديث النّبويّ الشّريف (من الموطّأ)**. ج– الفقه المالكيّ من مختصر خليل وغيره..."[3].

وذَكَرَا أيضًا **كُتُبَ الموادّ المشتركة** لطبقات الطّلاب الأربع، فَعَدَّا أَوَّلًا: "**مُوطّأ الإمام مالك والبخاريّ في الحديث**"[4].

كما ذكر الدكتور رابح تركيّ الموادّ الدّراسيّةَ السّبع في منهج ابن باديس[5] ، والكُتُبَ الدّراسيّةَ التّسعةَ عشر، وأَوّلُ مَا ذَكَرَ مِن هذه الأخيرة: " **كتاب الموطّأ** في الحديث للإمام مالك بن أنس ﷺ"[6]

---

[1] – آثار ابن باديس ، 1/ 91.

[2] – البصائر: السنة الأولى، العدد 47 (1/ 381) (يوم الجمعة 26 رمضان 1355هـ الموافق ليوم 11 ديصامبر 1936م)، ص5، عنوان المقال: بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر ونفقاتها. وينظر: آثار ابن باديس ، 1/ 117.

[3] – إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان– الجزائر، طبعة 2010 ، ص 260.

[4] – إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان– الجزائر، طبعة 2010 ، ص 261.

وفيما يتعلّق بشرح البخاريّ فقد أفادهُ **الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان** في سياق حديثهما عن دروس ابن باديس فقالا: " ... وبدرس التفسير ينتهي اليوم الدراسي الذي يقدم الشيخ فيه عشرة دروس أو أكثر، وقد يرتفع عدد الدروس في زمن الصيف نظرا لطول النهار، وفي شهر رمضان المعظم يُضيف الشيخ إلى دروسه المعتادة درسًا في شرح متن البخاري قبيل صلاة الظهر، كلّ يوم حرصًا على إفادة طلاّبه وجمهور المصلين.". إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان– الجزائر، طبعة 2010 ، ص 262.

[5] – الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الدكتور تركي رابح، ص 487، وتنظر: ص 489.

[6] – الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الدكتور تركي رابح ، ص 487، وتنظر: ص 489. وعزا الدكتور إلى جريدة البصائر، (العدد 47، 11 ديسمبر سنة 1936)، وهو ما عزوتُ إليه بدقة سابقًا، في البصائر: السنة الأولى، العدد 47 (1/ 381) (يوم الجمعة 26 رمضان 1355هـ الموافق ليوم 11 ديصامبر 1936م)، ص5، عنوان المقال: بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر ونفقاتها.

المظهر الرابع: شرح الموطّأ كاملاً: قد اشتهر ابن باديس بهذا الشرع الجليل النّفّاع، وقد مكث فيه ما يقربُ من ربع قرن من الزمان، وختمهُ شرحًا ليلة اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني عام 1358 هـ الموافق لفاتح جوان 1939م[1].

ولم يُحفظ من دُرُوس الشيخ ابن باديس في شرح الموطأ إلا درس الختم، وهو من مشمول آثاره المجموعة، وكان الدّرسُ شرحًا للحديث الأخير من موطأ مالك، الذي أخرجه في الكتاب الجامع، باب أَسمَاء النَّبِيّ ﷺ، عَنِ ابنِ شِهَابٍ، عَن مُحَمَّدِ بنِ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **(لِي خَمسَةُ أَسمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمحُو اللهُ بِيَ الكُفرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ).**

وقد وصف هذا الدّرس وحفل الختم تلميذُ ابنِ باديس الأستاذُ الشّيخ الجيلاليّ بنُ مُحَمَّد في مجلة الشّهاب، فقال رحمه الله:" ...يَسُرُّني جدّا أن أَزُفَّ هذه البُشرى الثّانية بختم الحديث الشّريف إلى القُرّاء الكرام بعد أن يكون قد استقرّ في أيديهم العددُ الخاصُّ مِن (الشّهاب) يحملُ بين جوانحه البُشرى الأولى بختم تفسير القرآن العظيم مُدبّجَةً أُصولُهُ ومُحرّرةً فُرُوعُهُ بِيَرَاعِ العالم العلّامة أديبنا الأكبر وكاتبنا البليغ الأشهر الأستاذ البشير الإبراهيميّ فهي بشرى على بشرى وخير يقفوهُ خيرٌ وفتح بعد فتح ونهوض بكتاب الله وسنة رسول الله يستتبع -إن شاء الله – نهوض الأمة وتقدّمها مادّيا وأدبيّا إذْ لا يصلحُ آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولُها. فما أعظمها من منّة وما أسبغها من نعمة.

كان ختم الأستاذ الجليل – حفظه الله- للموطّأ لاثنتي عشرة ليلة خَلَت من ربيع الثاني عام 1358 هـ الموافق لفاتح جوان 1939، وكان الاحتفال به رائعًا، وطيب حديثه في الحواضر والبوادي ذائعًا، وأريج عرفه في المجالس والنوادي ضائعًا. وسيرى القارئ وصف هذا الاحتفال العظيم فيما بعد إن شاء الله...

فختم كتاب الله وسنة رسول الله في هذه الدّيار التي حَلَّ فيها الطّارئ محلّ الأصليّ والسّالب محلّ الكاسب، والدّخيل محلّ الأصيل على ضرب من الأسلُوب يشرحُ -بحقّ- فصول الحياة المعقّدة للأمّة ويوضح لها مناهج السلوك ويأخذ بيدها في طريق لاحبٍ وصراط سويّ. وهو ختمٌ مؤذنٌ بختمِ عصر الجمود والرّكود وإقبال عصر النّهوض والتّقدّم"[2] .

ويواصل الأستاذ الشيخ الجيلالي بن مُحَمَّد في هذا المقال حديثه عن موطّأ مالك ومنزلته، فيقول في إحدى فقراته: " وبعد فإنّ الموطّأ الذي نحن بصدد الحديث عنه هو من أصحّ كتب الحديث وأعمّها نفعا لما اشتملت عليه من صحيح الأخبار وبالغ الآثار قال الشّافعيّ (ض): ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصحّ من كتاب مالك. وفي لفظ: ما وضع على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك – ولا حظ انّها شهادة الشافعي- وقال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي: "الموطّأ هو الأصل واللّباب. وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب وعليهما بُني الجميع كمسلم والترمذيّ" وقد شمله مالك (ض) بعناية عظيمة واحتفال طبير، فأجال فيه يد التهذيب والتنقيح حتى أخرجه على هذا الأسلوب العجيب والشكل الجميل من حسن الترتيب وسهولة التعبير وإتقان الوضع وإجادة الصّنع وصحّة الخبر وغزارة الأثر. ذكر بن الهباب أنّ مالكًا رحمه الله روى مأئة ألف حديث جمع منها في الموطأ عشرة

[1] - الشهاب، ج 7، مجلد 15، ص 321- 323، مقال بقلم الجيلاليّ بن مُحَمَّد.

[2] - الشهاب، ج 7، مجلد 15، ص 321- 323.

آلاف، ثمّ لم يزلْ يعرضها على الكتاب والسنة، ويخيرها بالآثار والأخبار حتى رجعت إلى خمسمأئة. وقال سليمان بن بلال: لقد وضع مالك الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث أو أكثر ومات وهي ألف حديث ونيّف، يخلّصها عاما فعامًا بقدر ما يرى أنّه أصلح للمسلمين وأمثل في الدّين..."[1].

ويواصل الأستاذ الشيخ الجيلالي بن مُحَمَّد في هذا المقال وصف الحفلة الرائعة بختم الموطّأ، فيقول في إحدى فقراته:"... وما كادت الشمسُ تجنحُ للغروب أصيل يوم الأربعاء حادي عشر ربيع الثاني حتى تقاطرت وفود الدّعوة على مدرسة التربية والتعليم المحروسة حيث وجدوا إخوانهم القسنطينيّين ينتظرون قدومهم السعيد بمزيد من التشوّق...

وبعد أداء صلاة المغرب انبرى أهالي قسنطينة المضايف يتنافسون في تكريم ضيوفهم –كما هي عادتهم-...

وما كاد مؤذّن العشاء يعتلي المنار حتى تكاملت تلك الوفود المكرّمة في الجامع الأخضر المعمور حيث يؤدّون صلاة العشاء ويسمعون بعد درس الختم من الأستاذ الحكيم. وبعد الفراغ من الصلاة وضع كرسيّ الدراسة في وسط الجامع وحلّق حوله الوفود والمستمعون وانتظمت الصفوف الأمامية من العلماء والأدباء ولما اتّسقت قلائد الحلقات واكتمل نظام الصفوف وعلت السكينة وساد السكوت كأنّ على الرؤوس الطّير طلع الأستاذ من مقصورته كالبدر ليلة تمامه في موكب من الجمال الإلهي والجلال النبويّ فاشرأبّت الرؤوس لطلعته المباركة وتطلّعت النفوس وخفقت الأفئدة في الصدور خفقة السرور فاعتلى كرسيّ الدراسة وأنشأ ينشر على مستمعيه الكرام تلك الدرر الغالية والحكم البالغة بفصاحة نادرة وبلاغة ساحرة ونبرات موسقيّة تمتزجُ بالأرواح امتزاج الماء بالرّاح فهزّ النفوس بعظاته " الحسنية" وخلّب العقول بتحقيقاته العلمية وأبحاثه النّفسيّة.

استغرق في الدّرس نحو ساعة ونصف مرّت كلمح البصر من شدّة فناء الأرواح في لذّة الدّرس وإغراق النفوس في الإصغاء- واللّذائذ الروحة أوسع من الزمن- وختم الأستاذ درسه بدعوات مأثورة وتلى على الحاضرين آخر ما كتب بنسخة الموطّأ اليدويّة الأثريّة فبيّن أنّها مكتوبة بخطّ صاحبها في القرن السابع الهجري – فيما أظنّ- .

ولمّا انتهى من الدّرس وصداهُ يتردّد في النفوس ومعانيه السّامية تملأُ فضاء القلوب أمر الناس بالجلوس في أماكنهم فقدّمت إيهم صحون الزلابيا التي تبرّع بها الكريم الخيّر المفضال السيّد الحاج حموش فتناولوها شاكرين مسرورين هاتفين بحياة العلم والعلماء..."[2].

أمّا مادّة درس الختم فقد حُفظَت ضِمنَ آثارِ ابن باديس، وهي جُزءٌ مِن مقالٍ طويلٍ نشرهُ في مجلّة الشّهاب أحدُ تليمذهُ الشّيخُ الجيلاليُّ بنُ مُحَمَّد، وهو بعنوان: (**درس ختم الموطّأ كمَا نقلَهُ في وقت الإلقاء بعض التّلامذة، وقد اجتهد أن يُؤدّيَ أغلب المقصود**)[3].

يقول الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان: "وبعد مرور سنة على هذا الاحتفال الكبير[1] الذي ظلّت تذكرهُ قسنطينة وما تزال، وجد العلماء وسكّان قسنطينة أنفسهم على موعد آخر ومع مناسبة أخرى جديرة بأن

[1]- الشهاب، ج 7، مجلد 15، ص 325- 326.

[2]- الشهاب، ج 7، مجلد 15، ص 329- 331.

[3]- الشهاب، ج 7، مجلد 15، ص 332- 344، وينظر آثار ابن باديس، 2/ 296- 308.

يُحتفل بها كذلك، إنّها مناسبة ختم كتاب موطّأ الإمام مالك (ﷺ) في الحديث، الكتاب الذي كان الشّيخ يدرسه للطّلبة المتفرّغين لتلقّي العلم.

وقد دُعي العلماء والأدباء والأعيان لحضُورِ حفل الاختتام الذي كان يوم 12 ربيع الثاني 1358 هـ الموافق لفاتح جوان 1939م.. وقد تقاطرت الوفُودُ لحضُور هذا الحفل الذي تَبَارَى سُكّان قسنطينة كعادتهم في الاحتفاء بالوافدين وحسن ضيافتهم، وقد وصف الشّيخ الجيلاليُّ بنُ مُحَمَّد أحد طلبة الشّيخ هذا الاحتفال وَصفًا رائعًا ودقيقًا نُشر في الشّهاب (ج: 7، م: 15)[2].

إنّ اهتمام الشّيخ ابن باديس بكتاب الموطّأ بعد كتاب الله لدليلٌ على مَنزلةِ هذا الكتاب ورفعةِ قدرِه، فقد قال فيه الشّافعيُّ: "ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصحّ من كتاب مالك" وفي لفظ: "ما وُضعَ على الأرض كتابٌ هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك".

ولهذا اهتمّ به ابن باديس ودرّسه لطلّابه، واستوفى كُلَّ أَبوَابِهِ إلى أن خَتَمَهُ في السَّنَة التّالِيةِ لعامِ خَتم القُرآنِ"[3].

وقد ألمعَ الدكتور عمّار طالبيّ بشخصيّة ابن باديس المحدّث بناءً على احتفاء ابن باديس بمنهج الإمام مالك في الموطّأ وختمه شرحًا، وهو ما عبّر عنه بقوله:"...وهو محدِّثٌ من الطّراز العالي لا يستشهدُ إلّا بالأحاديث الصّحيحة المسندة إلى الصّحاح السّتّ، إلى البخاريّ أو مسلم، أو الموطأ الذي اهتمّ به، واعتَبَرَ منهجَهُ في الاستدلال خيرَ المناهج، **فَدرَّسَهُ وختَمَهُ كما خَتَمَ القُرآن في رُبع قرن"**[4].

المظهر الخامس: اشتراطُ مرجعيّة الموطّأ في الكلام على المسائل الفقهية العلميّة والفُتيَا، أو: الاعتراض على المفتين والمتصدّرين الجاهلين بالموطّأ والمدوّنة: وقد وَجدتُّ نَصًّا لابنِ باديس يُفيدُ استنكارَ ابنِ باديسَ تَصَدُّرَ قومٍ من الدّكاترة للفُتيَا وخَوضَهُم في مَسائلَ **وَهُم لَيسُوا مِن أصحابِ الموطأ أو من قُرَّاءِ سُحنون**، وهم أعضاء في اللّجنة الوزارية المؤلَّفَة مِن مُسلمي الجزائر أنشأتها الإدارة الفرنسيّة يَستشيرُهَا رجالُ الوزارات الفرنسيّة المختلفة في المسائل التي تهمّ البلاد الجزائريّة، **يقول ابن باديس:** "...لكن الفكرة إن كانت جميلة في نفسها، فإنها كانت غير موفّقة في تنفيذها، ذلك أن الإدارة العليا لم تلاحظ إلا الفكرة السياسية في انتخاب أعضاء هذه اللّجنة، وعَمَدَت إلى ذلك الانتخاب بصفة مستعجلة فكان أعضاء اللّجنة مِن جرّاء ذلك لا يستطيعون أن يخوضوا في مختلف المسائل المعروضة عليهم، والتي يَتطلّبُ الكثيرُ منها معرفةً فنّيّةً عميقةً.

---

[1] – يريدان الاحتفال بختم تفسير القرآن. ينظر حديثهما عنه في ص 278– 280.

[2] – الشهاب، ج7، المجلد 15 ، ص 321– 331. وقد أشار في الهامش إلى موضع في الشهاب: ج7، م: 15، من ص: 321 إلى 344. ينظر: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، في ص 280.

[3] – إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان– الجزائر، طبعة 2010 ، ص 280.

[4] – آثار ابن باديس ، 1/ 91.

لقد استلفَتَ أنظارَنَا أخيرًا خوضُ هذه اللّجنة في مسألة "التّرشيد" كما كانت مِن قبلُ خَاضَت في شَأنها أثناءَ جلساتها الأولى، وهذه المسألةُ علميّةٌ فقهيّةٌ بحتةٌ، **يجبُ لحلِّهَا تضلُّعٌ في الفقه وتَعمُّقٌ في دراسةِ الكُتُب الدّينيّةِ والقوانين الدّينيّة المختلفة** ممّا وُضِعَ في استامبول والبلاد المصريّة وغيرها.

فَإِلَى جانبِ بعضِ المستشرقينَ الذينَ يحضُرُون اللّجنةَ والذين لا نُنكرُ عميقَ اطّلاعِهِم وَسعةَ معلُوماتهم، نَجدُ بعضَ أعيَانِ البَاشاغاوات، ولا نطعن فيهم إذا قُلنا أَنَّهُم **ليسُوا بأصحابِ معلومَاتٍ فقهيّةٍ**، ونجدُ بعضَ الدّكاترةِ **ولَيسُوا مِن أَصحابِ الموطّأ ولا مِن قُرَّاء سُحنُون**، ونجدُ غيرهم ممّن توفّرت فيهم بعضُ شروط سياسيّة أو اقتصادية، إلا أنّهم لا يستطيعون الخوضَ أيَّ خوضٍ في أيّ مسألةٍ دينيّةٍ مهمَا قلَّ أمرُهَا وصَغُرَ شأنُهَا. فهذه المسألة الدّينيّة إذا استثنينا شَخصَ الشّيخ ابن السّاسي قاضي قسنطينة لا نجدُ مَن يستطيعُ أن يَقُول فيها كلمةً.

ونحن اليوم في ساعة بناء وترميم، ولا نريد أن نترك مثل هذه المسائل مهملة فتعتقد فرنسا أنها عملت ما يجب عمله، ويقول لها بعض المتكلّمين "باسم الأمّة الإسلاميّة" **إنَّها قد عملت حقًّا في هذا الباب ما يجب أن يُعمل، في الوقت الذي نعتقد نحن فيه أنّ ما عَمِلَتْهُ إنّما هو عديمُ الفائدة وقليلُ الجدوى"**[1] .

المظهرُ السادس: اشتراطُ الدّراية بالموطّأ وكتب السّنة الأخرى لمن تَصَدَّرَ للتّدريسِ: وهذا المظهر يَقرُبُ من المظهر السّابق ما ذكرهُ ابنُ باديس وهو ينعى على بعض العلماء المتصدّرين حالهم مع كُتُب السُّنّة، وذلك عند تفسير قوله تعالى: **(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)[الفرقان]**، فهو يقولُ تحت عُنوان: (تنزيلٌ)[2]: "... وعلَّمنا القرآنُ أنّ النَّبيَّ ﷺ هُو المبيّن للنّاس ما نُزِّلَ إليهم من ربّهم، وأنّ عليهم أن يأخذوا ما أتاهم وينتهوا عمّا نهاهم عنه، فكانت سنّتُهُ العمليّةُ والقوليّةُ تاليةً للقُرآن، فهجرناها كما هجرناهُ وعاملنَاها بما عاملناهُ، **حتّى إنّهُ لَيَقِلُّ في المتَصدّرينَ للتّدريس مِن كبار العلماء في أكبر المعاهد مَن يَكُونُ قَد خَتَمَ كُتُبَ الحديث المشهورة كالموطّأ والبُخاريّ ومسلم ونحوها مُطالعةً فَضلاً عن غيرهم مِن أهل العلم وَفضلاً عن غيرها من كُتُب السّنّة**. وكم وكم وكم بيَّن القرآن وكم وكم وكم قابلناهُ بالصّدِّ والهُجرانِ"[3].

المظهر السّادس: اعتناؤهُ بشرحي ابن العربيّ على الموطّأ (القبس شرح موطأ مالك بن أنس)، و(المسالك شرح موطّأ مالك): فإنَّ المشهور أنّ ابن باديس كان مُعجَبًا بشخصيّة القاضي ابن العربيّ المعافريّ الإشبيليّ[4]، وقد ترجم له

---

[1]- آثار ابن باديس، 3/ 310- 311.

[2]- آثار ابن باديس، 1/ 407- 409.

[3]- آثار ابن باديس، 1/ 409.

[4]- وقد عُرف اعتناء الشيخ ابن باديس بكتاب (العواصم) لابن العربي، نسخًا ونشرًا، وهو ما عدّهُ الباحث حسن عبد الرحمن سلوادي تأثّرا بأبي بكر بن العربي، يقول: " ويظهر أيضا من خلال مطالعتنا لتفسيره أنه قد تأثّر بأبي بكر بن العربي الإشبيلي الأندلسيّ في كتابه: "العواصم من القواصم) الذي شغف به واستنسخه بنفسه عن مخطوط استعارهُ من الجامعة الزيتونية بتونس حيثُ قام بعد ذلك بتحقيقه ونشره، ويبدو هذا التأثير واضحًا وخاصة فيما يتعلّق بمنهج ابن العربي في دراسة العقائد الإسلامية والاستدلال عليها بالقرآن الكريم والحديث النبويّ في دراسة العقائد الإسلامية والاستدلال عليها بالقرآن الكريم والحديث النبويّ". عبد الحميد بن باديس مفسّرًا، حسن عبد الرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 (د، ط،)، ص 66.

وعرّف بكتابه (العواصم والقواصم) في سياق ذكر آثاره، كأحكام القرآن[1]، ثمّ ذكرَ شرحيه على الموطّأ فقال:"...**وكتابُ المسالك في شرح موطّأ مالك** (منهُ نسخةٌ في مكتبة الجزائر بها نقصٌ **وعندنَا منهُ جُزءٌ فيهِ مَا يُكمّلُ ذلكَ النّقص**)، **وكتابُ القبس** (**سُنمثله للطّبع إن شاء الله**) و..."[2].

وقد أعاد ذكر هذين الشّرحين لابن العربي على الموطّأ تحت عنوان: (تصانيفه)، مُعتمدًا عبارة ابن فرحون نقلًا عن ابن الزّبير، مُضيفًا عن نُسَخِهِمَا قائلًا:" وصنَّفَ في غير فنٍّ تصانيفَ مليحةً كثيرةً مُفيدةً. منها: أحكام القرآن كتاب حسن (مطبوع بمصر) **وكتاب المسالك في شرح موطّأ مالك** (**منهُ نسخة في مكتبة الجزائر بها نقصٌ وعندنا منهُ جُزءٌ فيه ما يُكمّلُ ذلك النّقص**)، **وكتابُ القبسِ** (**سنمثله للطّبع إن شاء الله**)، وعارضة الأحوذيّ على كتاب التّرمذيّ (منهُ نسخةٌ بجامع الزّيتونة)..."[3].

المطلبُ الثاني: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ: وهي مظاهرُ عدّة أكثرها بروزًا ما يأتي:

المظهرُ الأوّلُ: اعتناؤهُ بالموطّأ استجازة وإجازة: وهو ما سأبيّنُهُ عبر العناصر الآتية:

أوّلا: الاستجازة في الموطّأ: فهي ثابتة في خبر رحلة الشّيخ الإبراهيميّ إلى المدينة المنوّرة مرورًا بالقاهرة، وذلك ظاهرٌ عندما تحدّث عن بداية حياته العلميّة حديثًا مُفصّلًا، وَشُرُوعه في تدريس العُلُوم التي دَرَسَهَا على عمّه بعد موته، وعمره أربعة عشر سنة، وأنّهُ دوام على التّدريس إلى أن جاوز العشرين من عمره، فواصل قائلا: "ودُمتُ على تلك الحال إلى أن جاوزتُ العشرين من عمري، فتاقت نفسي إلى الهجرة إلى الشرق، واخترتُ المدينة المنورة... ومررتُ في وجهتي هذه بالقاهرة، فأقمتُ بها ثلاثة أشهر، وحضرتُ بعض دروس العلم في الأزهر وعرفت أشهر علمائه، فممّن عرفته وحضرتُ دروسه، الشيخ سليم البشري، والشيخ مُحَمَّد بخيت، حضرتُ درسه في البخاري في رواق العباسي، ... والشيخ سعيد الموجي، **ذكر لي أنّ لَهُ سَنَدًا عاليًا في رواية الموطّأ**، فطلبتُ أن أرويَها عنه بذلك السّند، **وحضرتُ مجالسَهُ بجامع الفاكهانيّ مع جمهور من الطّلبة، وتولّيتُ قراءة بعض الموطّأ عليه من حِفظِي..."**[4].

والظاهر أنّ روايته هذه **للموطأ** كانت سنة 1911 أو قبلها بقليل، بناء على ما حدّثنا به البشير الإبراهيمي من أنّ وصوله إلى المدينة المنورة في أواخر سنة 1911.

وقد تحدّث الإبراهيميُّ عن خروجه من القاهرة نحو المدينة المنوّرة وأثنى على رجلين اثنين في الحرم المدني وجد عندهما علمًا صحيحًا، فقال: "...وكان وصولي إليها في أواخر سنة 2011،... وطفتُ بحِلَق العلم في الحرم النّبويّ مختبرًا،

---

[1]- ينظر: آثار ابن باديس، 4/ 128- 139.

[2]- آثار ابن باديس، 4/ 128.

[3]- آثار ابن باديس، 4/ 138.

[4]- خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية، مقال لمحمد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/274- 275، وقد أفاد جامع الآثار الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ في الهامش أنّه "كتب الشّيخ هذه السيرة بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عندما انتخبَ عضوا عاملا فيه سنة 1961، ونشرتها مجلة " مجمّع اللغة العربية"، مجلد 21، القاهرة، 1966.

فلم يرُق لي شيءٌ منها، وإنّما غثاء يلقيه رهطٌ له من العلم والتحقيق شيء، ولم أجد علمًا صحيحًا إلا عند رجلين هما شيخاي: الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي – فهُمَا والحقّ يُقال– عالمان محقّقان واسعًا أفق الإدراك في علم الحديث رواية ودراية، ومن علم التفسير، فلازمتهما ملازمة الظّلّ، **وأخذتُ عن الأوّل الموطّأ دراية، ثمّ أدهشني تحقيقُهُ في بقيّة العلوم الإسلاميّة، فَلازمتُ دَرسَهُ في فقه مالكٍ**..."[1].

ثانيًا: الإجازة بالموطّأ: لقد أفاد البحثُ **بنصّ إجازة الشّيخ الإبراهيميّ للأستاذ مُحَمَّد الفاسيّ**، وهي إجازة عامّة، وضمنها **الإجازة بالموطّأ** والصّحيحين ومسند أحمد، وكانت هذه الإجازة كما أفاد جامع آثار الشّيخ نجلُهُ الدكتور أحمد طالب أنّها كانت "لـمّا زار الأستاذُ مُحَمَّد الفاسيّ الشّيخ الإمام في منزله بالجزائر في بداية سنة 1964، وهو طريح الفراش، وطلب منه أن يُجيزَهُ فأملى على وَلَدِهِ أحمد هذه الإجازة، ونصّها:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فقد سألني أخونا في الله العالم الحافظ الواسع الاطلاع السيّد محمّد الفاسي الفهري، ذو النسب الواضح المرفوع إلى أبي بكر ابن الجدّ الفهري، ذو البيت الرفيع العماد في التاريخ العلمي بالأندلس والمغرب، الذي لا يحصى عدد المتخرّجين في العلوم الإسلامية منه، وناهيك بالإمام أبي المحاسن الفاسي حسبما قلتُ في أرجوزة المثلثات:

والجَدّ جدّ أسرة شهيرة

سيماؤها التّعظيم والإجلال

ومن بقايا نسلها علّال

ووسمها الأوضاح لا الأغفال

سألني أن أُجيزَهُ إجازةً عامّة في رواية وتدريس ما أخذتُه ورويتُه عن مشائخي من علوم عقلية ونقلية، وهو أهل لجميع ذلك، ولو تحلّينا بحلية الإنصاف، وجرينا على جميل الأوصاف، لكان هو المجيزُ وأنا طالبُ الإجازة.

ولكنّني أجبتُهُ إلى مَرَامِهِ، وأجزتُهُ بكلّ ما حصّلتُهُ عن مشائخيّ في الشّرق والغرب رحمهم الله وجازاهم عنّي خيرًا، وقُلتُ بعد حمد الله والاستعانة بحوله وقوّته:

أَجزتُ أخانا الشّيخ مُحَمَّد الفاسيّ بروايةِ كُتُبِ الحديث (الصّحيحين ومسند أحمد والموطأ)، وكُتُبِ الرّجال والجرح والتّعديل، وجميع مُتون العلم وأمّهاته، وكذلك أجزتُهُ بأن يَروِيَ عنّي جميعَ ما في الأثبات المعروفة مِن أمّهات الفقه والحديث، وكذلك جميع ما احتوت عليه هذه الأثباتُ من المسلسلات، كالمسلسل بالأوّليّة وبالمصافحة، وسأكتُبُهَا لَهُ بالتّفصيل في فُرصةٍ أُخرى، وأَهمُّهَا ثَبتُ الشّيخ عبد الله بن سالم البصريّ، وثبت الملّا إبراهيم الكورانيّ، وثبت الشّيخ صالح الفلّاني، وثبت الشّيخ فالح الظّاهري المهناويّ الكبير والصّغير عن الشّيخ مُحَمَّد بن عليّ الخطّابيّ السّنوسيّ.

[1]– خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية، لمحمد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 275، وقد أفاد جامع الآثار الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ في الهامش أنّه "كتب الشّيخ هذه السيرة بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عندما انتخبَ عضوا عاملا فيه سنة 1961، ونشرتها مجلة " مجمّع اللغة العربية"، مجلد 21، القاهرة، 1966.

وغالبُ هذه الأثبات أَرويهَا عن جماعة من مشائخي منهم الشَيخ أحمد البرزنجيَ، والشّيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهنديَ، والشّيخ مُحَمَّد العزيز الوزير التّونسيّ، والشيخ يوسف بن إسماعيل النّبهانيّ، والشيخ سعيد الردّاد المصريّ، وإجازتُهُم لي جامعةٌ لجميع الأثبات المذكورة، وتلتقي وتفترق حتّى إنَّ الكثيرَ منها يتّصلُ بأئمّة المغرب كالقاضي عياض، والإمام أبي الوليد الباجيّ شارح الموطأ، والحافظ أبي عمرو يوسف بن عبد البرّ، بحيثُ لا يَذكُر الذّاكرُ كتابًا مَعروفًا إلّا وَوَجَدَ نفسَهُ متّصلًا بالرّواية إلى مُؤلّفِهِ.

وأُوصِي أخانا الشّيخ محمّدًا الفاسيّ بما أُوصِي به نفسي، وبما أوصاني به مشائخي، بتقوى الله في السّرّ والعلانية، وبتقدير شرف العلم وتعظيم رجاله، مدرّسًا أو راويًا، وبالدعاء بالخير للعلماء الذين هم سبب ارتباط آخر هذه الأمّة بأوّلها، والله تعالى ينفعُنِي وينفعُهُ بأسرَارِهِم وبركاتِهِم، إنّهُ سميعٌ مجيبٌ. **مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ**"[1].

المظهر الثاني: حفظُ أحاديث الموطّأ: هذا المظهرُ مُستَفادٌ من وصف الشيخ الإبراهيميّ **إجازةَ الشّيخِ سعيد الموجيّ لَهُ الموطّأ (في القاهرة)** في المرحلة التي أقامها **فيها** وهو في طريقه إلى المدينة المنوّرة، فقد قال:"... ومَرَرتُ في وجهتي هذه بالقاهرة، فأقمتُ بها ثلاثة أشهر، وحضرتُ بعضَ دُرُوس العِلمِ في الأزهر وعرفتُ أشهَرَ عُلَمائه، فَمِمَّن عرفتُهُ وحضرتُ دروسه... والشّيخ سعيد الموجي، ذكر لي أنّ لَهُ سَنَدًا عَاليًا في رواية الموطّأ، فَطَلَبتُ أن أرويها عنه بذلك السّند، وحَضرتُ مجالسَهُ بجامع الفاكهانيّ مع جمهور من الطّلبة، **وتولّيتُ قراءةَ بعضِ الموطّأ عليه من حفظي...** "[2].

فكونُ الشّيخُ يخبرُ بقراءته الموطّأ على الشّيخ من حفظه يفيدُ أنّه كان يحفظُهُ كُلّهُ، وكونُهُ يخبرُ بقراءة بعض الموطّأ من حفظه على شيخه، لا يعني أنّه لا يحفظهُ كلّهُ، بل ثمّةَ ما يُؤكّدُ حفظَهُ للموطّأ كلّه، ككون الموطّأ كتابًا أُمًّا رئيسًا، ومرجعًا عظيمًا أساسًا في الفقه والحديث ببلاد الغرب الإسلاميّ، فلا يُتصوّرُ عدم اهتمام الشيخ الإبراهيميّ به، وكذا شُهرة الإبراهيميّ بقوة الحفظ والاستحضار، وقد تحدّثَ عن ذلك بقلمه في مقال لَهُ بعنوان: **(مَن أنا؟)** قائلا:"... واختصصتُ بذاكرة وحافظة خارقتين للعادة... "[3] .

ثمّ ذكر الإبراهيميُّ محفوظاته بعد حفظ القرآن الكريم في السَّنَة الثّامنة من عُمُرِهِ، من ذلك قوله:"... وحفظتُ كثيرا من كُتُب اللّغة كاملةً كالإصلاح والفصيح... وكان عمّي يشغلني في ساعات لنهار بالدروس المرتّبة في كتب القواعد وحدي أو مع الطلبة ويمتحنني ساعة من آخر كلّ يوم في فهم ما قرأت فيُطربُ لصحّة فهمي، فإذا جاء الليل أملى عليّ من حفظه – وكان وسطًا– أو من كتاب ما يختار لي من الأبيات المفردة أو من المقاطيع حتى أحفظ مأئة

---

[1]– آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، 1/ 311– 312. وينظر: الدّرّ النّفيس في إجازات ومرويّات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، ص 187– 189، وينظر ما قبلها في : (تحقيق في رأي الإبراهيميّ في مفهوم الإجازة) في ص 185– 186.

[2] – خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية، لمحمد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/274– 275، وقد أفاد جامع الآثار الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ في الهامش أنّهُ"كتب الشّيخ هذه السيرة بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عندما انتخبَ عضوا عاملا فيه سنة 1961، ونشرتها مجلة " مجمّع اللغة العربية"، مجلد 21، القاهرة، 1966.

[3]– من أنا؟ للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 164.

بيت... وأمدّتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدّرتُ دون سنّ التّصدّر، وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخًا في سنّ الصّبا..."[1].

وممّا يفيدُ في هذا السياق ما ذكرهُ الشيخ الإبراهيميّ في وصف درسه الذي حملهُ عليه إخوانهُ لمّا حَلَّ بدمشق سنة 1917، قال رحمه: "... وألقيتُ دروسًا (تحت قبّة النصر الشهيرة) على طريقة الأمالي، **فكنتُ أجعلُ عماد الدرس حديثًا أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثمّ أملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه**، فسمع الناس شيئا لم يألفوهُ ولم يسمعوهُ إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني..."[2]

كما تحدّث الشّيخُ مُحَمَّد الحواس بوسنّة السّطائفيّ عن حافظة الإبراهيميّ وقوة استحضاره، قائلاً:"وعلّامَتُنَا نظرًا لذكائه وحافظته الخارقة للعادة لا تضاهيه في هذا المجال إلاّ ما قيل عن حافظة مُحَمَّد بن إدريس الشافعيّ رحمه الله، وعندما سألته عن أوّل كتاب قرأهُ في الأدب العربي، فأجابني بأنه قرأ:" البيان والتبيين" للجاحظ مرّتين فحفظه واستظهرهُ عن ظهر قلب، وممّا يؤكّدُ مقولته هذه وصحّتها أنّه في صائفة 1961م قضى عطلة الصّيف بتونس، وكنتُ ملازمًا له كظلّه بمعيّة الشيخ عبد الرحمن بن بيي، وفي يوم من الأيام جاءني الشّاعر الإباضيّ الشّابّ صالح خرفي، وطلب منّي مرافقته إلى منزل الشيخ الإبراهيمي بحي المونفلوري بتونس، وأثناء حديثنا مع الشيخ في كلّ ما لذّ وطاب من حديث في مجال الأدب والأدباء والشعر والشعراء، حدّثنا عن واقعة وقعت له باليمن بمدينة صنعاء، قال الشّيخ العلّامة: كان الشعراء والأدباء في اليمن يعقدون ملتقى في كلّ سنة ويقدم الشاعر والأديب ما أعدّهُ للمناسبة، ومن ضمن من قدّم قصيدته التي تربو عن مِأْئة بيت شعر، كانت قصيدة عصماء، وعندما انتهى الشاعر من إلقاء قصيدته، قال الشيخ العلامة: رفعتُ يدي وأعلنتُ أمام الملأ وبحضور إمام البلاد أنّ القصيدة مسروقة،، وأنا أحفظها وبدأت في إلقائها على الحاضرين من مطلع القصيدة إلى نهايتها، فانفعل الجميع انفعال الغضب بما فيهم الإمام، وكاد أن يأمر بجلد الشاعر وإلقائه في السجن، وعندما بلغ السيل الزبى أعلنتُ أمام الحضور أنّ القصيدة لصاحبها، فأجابني الجميع بما فيهم إمام البلاد، ها أنت تحفظها، فقلتُ للحضور بما فيهم الإمام، عندما كان الشاعر يلقي قصيدته كنتُ أحفظها فاندهش من كان بالمجلس.

وأنا أقول: كيف لا يكون علامة الجزائر وعلامتها تعرف بها الجزائر كعلامات الاسم والفعل والحرف، فالإبراهيميّ يملكُ حاظة يبزّ بها مُحَمَّد إدريس الشافعيّ، ذكرتُ هذه الحادثة لأدلّل بها على عظمة الشيخ الإبراهيميّ رحمه الله وقوّة حافظته النّادرة..."[3].

---

[1]- من أنا؟ للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 165، وينظر: خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية - المرحلة الأولى -للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 273 – 274.

[2]- خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية - المرحلة الرابعة -للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 277.

[3]- فهرس أعلام المفسرين للقرآن الكريم عبر العصور الإسلامية، تأليف الشيخ الإمام الحواس بوسنّة، ص 99- 100.

المظهر الثالث: شرحُ الموطّأ: وقد أفاد أخبارُ الحركة العلميّة التي أحدثها الإبراهيميّ وإسهاماته الإصلاحيّة أنّه اشتغل بشرح الموطّأ مرّتين: **إحداهما في بلدة سطيف** في حدود سنة 1924م أو قبلها بقليل. **والأخرى: في دار الحديث** ببلدة **تلمسان**، وفيما يأتي الحديثُ عنها:

أوّلا: شرحهُ الموطّأ في بلدة سطيف: إنّ البحث في الحركة العلمية التي أحدثها الإمام الإبراهيميّ في بلدة سطيف قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، يفيدُ بأنّهُ قام بشرح مُوطّأ مالك بن أنس، دُونَ أن نَقِفَ على ما يفيدُ بطبيعة هذا الشّرح والقدر المشروح منه، وقد أشارَ إلى هذا الدّرس – درس الموطّأ – الأستاذُ عبد الحميد مَعيزَة – المدرّس بلدة سطيف– وهو يصفُ جوانب من النّشاط الإصلاحيّ للشّيخ الإبراهيميّ[1]، وذلك في قصيدة نشرها الأستاذ معيزة سنة 1927، وهي" قصيدة سجَّل فيها مَلامح مِن تلك الحركة ومَعالمَ مِن ذلكَ العَمَل فقال:

سطيف لكِ البُشرى فَطِيرِي سُرُورًا ... وَجَاري إذَا شِئتِ الدَّرَاري نُورًا

فهذا بشير العلم ألقى بك العصى ... فبري به جارًا، وسري مُجيرًا

لنشر علوم الدين قام مُشمّرًا ... بعزمة صدق لا تلاقي فُتُورًا

إذا شِئتِ عُلوم الأوَّلينَ فَأَمَّه ... فسَلْ بعلوم الأولين خبيرًا

مُوَطَّأٌ كما شاء الإمامُ مهذَّبٌ ... وحكمة لقمان تفيضُ غزيرًا

وتفسيرُ قُرآنٍ ستنفُخُ رُوحَهُ ... فَتبعثُ في كُلِّ البَرَايَا نُشُورًا

وإذا أردتَ البَحث في عِلم عَصرِنَا ... تَجِدْهُ بِكُنهِ الكَهرباءِ بَصِيرًا

نعم، حل في أرجائك الفيح ناصح ... أمين، فزيدي يا سطيف شعورًا

وأذَّن في الأرواح والقوم نُوَّمٌ ... وقد خيّم الجهل المميت دهورا

ويحضُّ الأستاذ معيزة النّاس على الإقبال على الإمام لنيل المعارف التي تمحو الجهلَ وتُنِيرُ العُقُولَ كَمَا تَمحُو آيَةُ النّهارِ غَسَقَ اللّيلِ، فَيَقُولُ:

أقول لقومي حين شاهدتُ دَرسَهُ ... مَقَالاً يَعِيهِ العَارِفُون خَطِيرًا

هَلُمُّوا إلى نَيلِ المعارفِ والعُلَى ... فَقد أَسفَرَ الصُّبحُ المنيرُ سُفُورًا

---

[1]– أمّا الأماكن التي كان الشيخ البشير ينشطُ فيها، فهي ثلاثة، هي ما ذكرهُ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي: "وبعد بضع سنين تمكن الإمام من تأسيس مسجد ببلدة راس الوادي، ودعا – لافتتاحه – الإمام ابنَ باديس، الذي أشار إلى أنّ الأستاذ الإبراهيميّ ألقى خطابا عظيمًا، ثمّ تعزّز المشروعان – مدرسة سطيف ومسجد رأس الوادي– بمشروع ثالث سنة 1931، وهو مسجد كبير بمدينة سطيف.

وبالرّغم من أننا لم نعثر –حتى الآن– على أخبار بتأسيس مشروعات أخرى قبل تأسيس جمعية العلماء، فليس مُستبعدًا أن يكون الإمام الإبراهيميّ قد أسّس مساجد أو مساجد أخرى، أو وجّه غيره إلى تأسيسها. وكم أهمل التاريخ من أعمال!".آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ،1/ 29.

وأمّا المسجد الكبير بسطيف فقد ألقى الشيخ الإبراهيميّ خطابا بمناسبة افتتاحه تضمّنته آثاره في: 1/ 91– 96. وأفاد النّجلُ الدكتور أحمد الإبراهيميّ في الهامش بما نصّهُ: " وجدنا في أوراق الإمام هذه المسودة لخطاب ألقي بمناسبة افتتاح مسجد سطيف. وقد تمّ الاحتفال بافتتاح المسجد يوم 20 أكتوبر 1931". آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ،1/ 91 (الهامش).

وأنهى الأستاذ معيزة قصيدتَهُ بحثِّ الإمام الإبراهيميّ على الصّبر على ما يعترضُهُ مِن عَوَاثِيرَ، مُبشِّرًا إيَّاهُ بالفَوزِ والنُّجْحِ:

فيا أيُّهَا الشّهمُ الذي شاع ذكرُهُ ... فَأنجَدَ في كُل البِلادِ ظُهُورًا

تَصَبَّر إذا ما الأمرُ صَعبٌ فإنَّمَا ... يُلاقي نَجَاحًا مَن يُكُونُ صَبُورًا

وَدَاوِم على هدي، وكن خير مرشد ... ستحظى بفوز المصلحين أخيرا "[1].

والظّاهر من قصيدة الأستاذ عبد الحميد معيزة وما صدّرت به في جريدة النجاح **أنّ الشيخ الإبراهيميّ شرع في شرح الموطّأ وتفسير القرآن، قبل هذا التاريخ الذي نُشرت فيه القصيدة**، وكانت دروسُهُ قد شَاعَ خبرُهَا، وانتَشَرَ خيرُهَا، وهو ما نلمسُهُ ممّا ذكرهُ الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ في سياق وصف الحالة الدّينية للشّعب الجزائريّ وتعلّقه بالأشخاص من السّاسة وتأثير الطّرقيّين على الحال الدّينيّة-: "من أجل ذلك سعى الإمام الإبراهيميّ إلى إحداث حركة تعليميّة بمدينة سطيف، فتمكّن من فتح مدرسة لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصّة، وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضّروريّ من العلم"[2] .

وقد تقبّل أولو العلم وأهل النُّهى هذا العمل بقبول حسن، واستبشروا به خيرًا، وهنَّأوا مدينة سطيف وأهلها بما مَنَّ الله عليهم، إذْ بَعَث فيهم عالِمًا من أنفسهم، عزيز عليه ما عنتوا، حريصٌ عليهم، وحثُّوهُم على الالتفاف حوله للاستفادة ممّا آتاهُ اللهُ مِن العلم والحكمة. وقد حَفِظَ لَنَا التَّاريخُ شيئًا مِن ذلك، حيثُ نَشَرَ الأستاذُ عبدُ الحميد معيزة (1893- 1927) قصيدة سجَّل فيها ملامحَ من تلك الحركة ومعالمَ من ذلك العمل فقال: - ذكر القصيدة- ... "[3].

هذا وقد اجتهدتُّ في تحديد مكان درس الموطّأ فَلَم أَجدْ شيئًا يَقوَى به القولُ، ويَذهبُ به الاشتباهُ، إلا ما يمكنُ احتمالُهُ من أماكن ثلاثة ، كالمدرسة الصغيرة التي أسّسها الإبراهيميّ لتنشئة طائفة من الشّبّان نشأة خاصّة وتمرينهم

---

[1] - جريدة النجاح، عدد (144)، (يوم الجمعة 1 فيفري 1924)، ص 3، عنوان المقال: ديوان الأدباء، كاتب المقال عبد الحميد معيزة (المدرّس بسطيف)، وقد استفدتُّ هذا الخبر ممّا أوردهُ الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ في جمعه آثار والده الشيخ البشير، 1/ 27- 28، وكتب تحت عنوان المقال ما يلي:" قصيدة بليغة من بنات أفكار الأديب البارع الشيخ عبد الحميد معيزة المدرس في سطيف نظمها في مدح العلامة الأبرع المتفنّن الشيخ البشير الإبراهيميّ بمناسبة انتصابه لتعليم العلوم الإسلامية بتلك البلاد.

ونحن بمعرفتنا لهذا العلامة نتحقق أن بلاد سطيف المتعطشة للعلوم العربية سيكون لها شأن في ميدان العلم والأدب. وكيف لا والشّيخ البشير من النبغاء المحرزين على إجازات علمية من مشائخ الأزهر الشريف، فعسانا نرى من رجال سطيف وضواحيها إسعافاً وتأييدًا لهذا المبدإ الحسن والعمل المبرور حتى ينتشلوا أبناءهم من مصائب الجهل، والنوايا في أولئك الفضلاء حسنة.

وهاهي القصيدة بلفظها الرائق ومعناها الفائق:". ثم ذكرها.

[2] - عزا الدكتور أحمد طالب في الهامش: (8)، (1/ 27- 28) إلى مقال: "خلاصة حياتي العلمية والعملية " في الجزء الخامس الآثار. وقد تحدّثَ الشّيخُ البشيرُ نفسُهُ عن ذلك فقال: "... ثمّ لما تمّ استعدادُ الجمهور الذي هزّتهُ صيحاتي إلى العلم، أسّستُ مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشّبّان نشأة خاصّة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم، وكانت أعمالي هذه في التعليم الذي وقفت عنايتي عليه فاترة أحيانا من مكائد الحكومة الاستعمارية..."

[3] - آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، 1/ 27- 28، وأشار إلى المقال في جريدة "النجاح"، عدد (144)، قسنطينة: 1/ 2/ 1924، وهو - كما ذكر - في جريدة النجاح، عدد (144)، (يوم الجمعة 1 فيفري 1924)، ص 3، عنوان المقال: ديوان الأدباء، كاتب المقال عبد الحميد معيزة (المدرّس بسطيف).

على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضّروري من العلم[1] ، أو مسجد المحطّة الذي كان الشيخ الإبراهيميّ يتأسّفُ عن ضياع ما ألقاهُ من الدّروس فيه، ويحتملُ أن يكون ذلك في مسجد آخر.

وأمّا المسجد الكبير الذي أسّسهُ الإبراهيمي بسطيف وتحدّث عنه، فاحتمالُ إلقاء درس الموطّأ فيه بعيدٌ، لأنّ الحديث هنا عن درس الموطأ الذي كان الشروع فيه في حدود 1924 أو قبل ذلك بقليل، وافتتاحُ المسجد الكبير كان يوم 20 أكتوبر 1931، وقد ألقى الإبراهيميّ خطابا بمناسبة افتتاحه، وهذا التاريخُ وذاكَ الخطابُ يُفيدَانِ بأنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد تأسّست قبلُ، وأنّ الإبراهيميّ قد باشر مهامّهُ فيها نائبًا لرئيس الجمعية الإمام ابن باديس[2].

ثانيًا: شرحُهُ الموطّأ في دار الحديث بتلمسان: وقد ذكرهُ الشيخُ نفسُهُ في سياق حديثه عن ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة وموقع معهده منه، حيثُ قال:" ... وكان رحمه الله يشتدّ عليّ في اللّوم، ويصمُني بالتّقصير في حقّ "البصائر"، فإذا زارني بتلمسان ورأى الدّروس تنتظم السّاعات، وسَمِعَ درسَ التّفسير باللّيلِ، **ودَرسَ الموطّأ في الصّباحِ البَاكِرِ**، ورأى إقبال الجماهير وتأثّرهم- ابتهج ابتهاج الظّافر، ونَسِيَ " البصائر" والحديث عنها، واسترحتُ من لومه وعتابه"[3].

ويُقدّرُ الباحثُ هنا أنّ درس الموطأ هذا في الصباح الباكر هو الذي عناهُ الشيخُ الإبراهيمي بالذّكر بعد سنواتٍ بقوله: "...فكنتُ ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء ..."[4].

ثمّ إنّ البحث في القدر التي شرحهُ الشّيخُ الإبراهيمي من الموطّأ يستدعي سوقَ بعض كلامه في مقاله المشار إليه آنفًا: (ذكرى عبد الحميد بن باديس الثّامنة وموقع معهده منها)[5]، فإنّهُ يُلمحُ إلى ذلك ويُعينُ على تَلمُّسه، وهو قولُهُ – مُجيبًا ابنَ باديس– في قوله لَمَّا سَمِعَ درسَهُ في دار الحديث بتلمسان في تفسير قوله تعالى:(**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتًا**)(87): قال رحمه الله: بعد تمام الدّرس ما معناهُ: إنّ هذا الدّرس وحدَهُ كان كافٍ لإحياء أمّة مستعدّة..." وقال أيضًا عقبه هذا: "...ولو أنّ التلاميذ أوتوا حظّا من النّشاط ولتوفيق لما ضاعت هذه

---

[1] – ينظر: آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، 1/ 27- 28.

[2] – ينظر: آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ، 1/ 91- 96 مع تعليق نجله الدكتور أحمد طالب في الهامش، ص 91.

[3] – جريدة البصائر، العدد 32، من السنة الثانية من السلسلة الثانية، يوم الاثنين 9 جمادى الثانية عام 1367 هـ الموافق ليوم 19 أفريل سنة 1948م. عنوان المقال: ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة وموقع معهده منها، للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ ص1، وينظر: آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ، 2/ 195.

[4] – خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية – المرحلة الرابعة –للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ضمن آثاره، 5/ 277.

[5] – جريدة البصائر، العدد 32، من السنة الثانية من السلسلة الثانية، يوم الاثنين 9 جمادى الثانية عام 1367 هـ الموافق ليوم 19 أفريل سنة 1948م. عنوان المقال: ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة وموقع معهده منها، للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ ص1، وينظر: آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ، 2/ 195. وينظر: جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين في خدمة الحديث الشريف، د. عقيلة حسين، دار الوعي للنشر والتوزيع رويبة6 الجزائر، ط1 (1334 هـ/ 2012م)، ص 319. والحقُّ – والله عليمٌ– أنّني وقفتُ على نصّ خبر درس الموطّأ في جريدة البصائر وتحدّثتُ عنه ضمن مظاهر اعتناء الشيخ الإبراهيميّ بالموطّأ قبل أن أرهُ مذكورًا عند الباحثة، فالحمد لله على الموافقة.

الدُّروس ولنُشرت كما هي فَفُزنَا بالحُسنَيَين...". فأجابَهُ الإبراهيميُّ بما خطّهُ بقلمه: " فَقُلتُ لَهُ: عزائي عن هذا أنّ دروسكَ لم تُكتب وقد شَارَفْتَ خَتمَ القُرآن وأينَ هذا الوشل من ذلك البحر؟ وما قلتُ له هذا مجاملًا ولا مُتواضعًا"[1].

فيُفهمُ من هذا أنّ الإبراهيميّ قد بلغ هذا الموضع من القرآن تفسيرًا [يونس:87]، قبل سنة 1938م التي ختم فيها الشيخ ابن باديس القرآن يوم يوم 13 ربيع الثّاني 1357هـ/ 1938م[2].

ويغلبُ على الظّنّ أنّ الإبراهيميّ قد شرح في شرح الموطّأ وتفسير القرآن منذ افتتاح دار الحديث يوم 27 سبتمبر 1937، وقد يكون الشروع فيهما قبل ذلك في جوامع تلمسان.

فَيَحصُلُ من هذه المعطيات والأخبار والتّواريخ أنّهُ في المدّة التي زارهُ فيها الشّيخُ ابنُ باديس إلى دار الحديث وسَمِعَ منه ذلك الدّرس في تفسير آية [يونس: 87]؛ كان البشيرُ الإبراهميّ قد قَطَعَ شَوطًا مُعتبرًا جدًّا في شرح الموطأ – والله أعلم–.

وليس بين أيدينا من الأخبار والمعلومات التي يمكنُ الجزمُ بختمه الموطّأ شرحًا، ولعلّ مزيد البحث – لاحقًا– يَكشِفُ عن بعض الجوانب الخفيّة، والله أعلم.

المطلبُ الثالث: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الشّيخ السّعيد أبي يعلى الزّواويّ:

إنّ الباحث في تراث الشّيخ أبي يعلي يجدُ احتفاءهُ بموطّأ الإمام مالك في مُناسبات عدّة وسياقات مختلفة، وفي بعض الأحيان يتكلّم بكلماتٍ قليلاتٍ مع دلالتها على عظيم قدر الموطّأ عندهُ، وكبير شأنه عند العلماء. ولعلّي أستجلي ذلك من خلال ما يلي:

المظهرُ الأوّلُ: إجلالُهُ وتعظيمُهُ للموطّأ وثقتُهُ بأحاديثه: فقد قال رحمه الله في مقال لَهُ حول إيراد الخطباء الحديث وهو ردٌّ على رَدِّ بعضِ الكُتّاب عليه فيمَا كَتَبَهُ سابقًا: "اعلم أيّها الأخ أنّي من أُجِلُّ وأُبَجّلُ بكلِّ تعظيمٍ وإعجابٍ **الموطّأ وصحيحيّ البخاريّ ومُسلم** رحمهم الله وجازاهم عنّا خير جزاء مع عدم العصمة لي ولهم"[3].

وقد تابع حديثه بنفَسِ الرّادِّ على مَن ردَّ عليه بدعوى طعنه في الموطّأ فقال رحمه الله: "وأمّا قولكم وأغرب من ما ذكر تلك الجملة التي ذيّلتم بها التّكلّم على الموطّأ الخ تلزمون تلك الجملة التي وددت محوها بدمي بكتابه الذي هو أسُّ الإسلام **فالجواب:** إنّي لا أريدُ بهذه الجملة – والمقالة في الجريدة بين أيدينا– سوى قولي: **(وكذلك يُوثقُ بأحاديث الموطّأ)** وقولي بعد ذلك: (...**وقد التزمتُ منذُ أمدٍ أن لا أَفُوهُ بالحديث فيما يُبنَى عليه حكمٌ شرعيّ وخصوصًا في**

---

[1] – جريدة البصائر، العدد 32، من السنة الثانية من السلسلة الثانية، يوم الاثنين 9 جمادى الثانية عام 1367 هـ الموافق ليوم 19 أفريل سنة 1948م. عنوان المقال: ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة وموقع معهده منها، للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ ص1، وينظر: آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ، 2/ 195.

[2] – ينظر: الشهاب، ج 4، 5، المجلد 14، (عدد خاص باحتفال ختم التفسير الكريم)، ص 154.

[3] – الشهاب، السنة الثانية، عدد 62، ص5 (الخميس 6 ربيع الثاني 1345 هـ/ 14 أكتوبر 1926م)، عنوان المقال: ، حول إيراد الخطباء الحديث –ردّعلى ردّ 4– وقد استفدته ابتداءً من جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، ص 129. وينظر: مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الإمام أبي يعلى الزّواويّ)، جمع وإعداد الدكتور أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى، للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة – الجزائر،4/ 84.

الحلال والحرام والأمر والنّهي إلاّ إذا كان ثابتًا في الصّحيحين والموطّأ) فَعَلَامَ سفك الدّماء، وليس أيضًا هناك من خطأ يُجبر بالدّم؟ ..."[1].

وفي ثقته بأحاديث الموطّأ قال أبو يعلى في موضع آخر؛ في سياق مناقشته القائلين بالسّدل في الصّلاة لا القبض "...قُلنَا للقائلين بالسّدل: **والموطّأُ أصحُّ كتاب بعد كتاب الله** مِثلُ الجامع الصّحيح للبخاريّ..."[2].

المظهرُ الثاني: إنكارُ هجران الموطّأ في تقرير الأحكام والمسائل الفقهيّة والاحتفاءُ بغيره من الكتب دُونهُ في القيمَة: والمقصود بهذا أنَّهُ انتصر للموطأ في مرحلة هجرهُ بعض النّاس ولم يعتدّوا به، بل احتفوْا بكتبٍ أخرى –كخليل مثلاً– وهو صُورة من صُور الفساد — في نظره–.

وَيَبرُزُ هذا المظهرُ عند أبي يعلى الزّواويّ فيما قرّرهُ ضمن مقالٍ له مَشهور بعنوان: **(نحن (الإصلاحيّين) وخصماؤنا)**، حيثُ تكلّم عن الإصلاح الدّينيّ وفروعه، والفساد الواقع ومجالاته، وشرح ذلك إلى أن قال رحمه الله:"...هل يستطيع أحدٌ أن يقول: لم يظهر الفساد في كتب التفسير وفي كتب الحديث بل وفي الحديث نفسه، وفي علم الكلام ومذاهبه؟ وفي الفقه وفروعه؟ وفي التّصوّف وفضائحه، بل وكفرياته، ومن أحدث القطب والغوث والديوان وتصرف الأولياء الأموات؟ ومن أحدث تشييد القصور على القبور فسمّوها القِبب متباهين بها ينفقون عليها ما أنفق على الأهرام تقريبا؟ وإذا سألتهم عن ذلك قائلا: ما مذهبكم في الأحكام الشّرعيّة الفقهيّة؟ قالوا: مالكيّ، وقلت لهم: أنعم به وأكرم سلفيّ مرضيّ المقالة والتدوين وماذا قَالَ ومَاذا دَوَّنَ؟ قالوا: لا نعرفُ شيئًا، **ذلك بأنّ الموطّأ مهجورٌ**، وإنّما يقولون لنا كتابٌ في مذهب مالك اسمُهُ مختصر خليل به الفتوى، قلنا لهم: هاتوا المختصر، فجاءوا به فإذا فيه: **(وإن يوصي به حَرُم)** ثمّ إذا قلت له: فلمَ لم تعملوا بهذه النصوص؟ قالوا: ولكن ولكن.

ألا فلتَسقُطْ كلمة (لكن) في العربيّة لولا أنّها في القرآن، وهكذا أجوبتُهُم لنا معشَرَ الإصلاحيّين وهم يجادلون بالباطل لِيُدحِضُوا به الحقَّ"[3].

المظهرُ الثّالثُ: الاعتناءُ بما رواهُ مالكٌ في الموطّأ واعتمادُهُ في تحقيق القول فيما وَرَدَت فيه رواياتٌ عن مالك: وذلك ظاهرٌ صريحٌ في تناوله **مسألة نسبة السّدل في الصّلاة مذهبًا لمالك، قال أبو يعلى:**"...قلنا للقائلين بالسّدل: إنكم زَكّيتم ابن القاسم وسفّهتم **مالكًا الذي روى الحديث في موطّأه، والموطّأُ أصحّ كتاب بعد كتاب الله مثلُ الجامع**

---

[1]– الشهاب، السنة الثانية، عدد 44، ص 11. (الخميس 26 محرم 1345 هـ/ 5 أوت 1926م)، عنوان المقال: إيراد الفقهاء الحديث. وقد استفدته ابتداءً من جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، ص 129. وينظر: مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الإمام أبي يعلى الزّواويّ)، جمع وإعداد الدكتور أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى، للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة – الجزائر،4/ 85.

[2] – البلاغ، 1 عدد 211، السنة الخامسة (04 محرم 1350 هـ/ 21 ماي 1931م)، ص 3.

[3]– البصائر، عدد 4، السنة الأولى (الجمعة 29 شوال 1354 هـ الموافق ليوم 24 جانفي 1936م)، ص 4، عنوان المقال: (نحن (الإصلاحيّين) وخصماؤنا (عقيدتنا في الأولياء، زيارة القبور، التوسل والوسيلة، قراءة القرآن على الجنازة) بقلم الشّيخ أبي يعلى الزواويّ رئيس لجنة العمل الدائمة لجمعيّة العلماء والملقّب بشيخ الشّباب وشابّ الشّيوخ))، وقد استفدتُهُ ابتداءً من جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، ص 120.

الصحيح للبخاري، ولم يَثبُت لنا أنّ مالكًا ضَرَبَ عن الحديث عاملًا بعمل أهل المدينة كما تدّعون. وعلى هذا – أعني عدم اعتبار هذا الحديث الذي في الموطّأ الصحيح فيكون ثلمةً في جميع أحاديث الموطأ بأن نقول: إنّها باطلة بالعمل، وحكم الأصول عند الخلاف الرجوع إلى الكتاب والسنة. وهذه المسألة لا وجود لها في الكتاب العزيز إنّما هي في السنة الفعلية لا القولية إذ لم يردْ حديثٌ بأمر القبض...

وقد وجدنا سنة رسول الله ﷺ قد حكمت بمطلوبية القبض في الصلاة بشهادة **ما في الموطّأ والصحيحين وغيرهما** من الأحاديث السّالمة من الطعن فالواجب الانتهاء إليها والوقوف عند حدّها والقول بمقتضاها" انتهى ما في البناني.

وقال ابن رشد في بداية المجتهد: "ورأى قوم أنّ هذا الفعل –يعني القبض– من سنن الصلاة وهم الجمهور إلى أن قال: ورأى قوم أنّ الآثار التي أثبتت ذلك اقتضت زيادة على الآثار التي لم تُنقل " ا هـ.

قلتُ: وهو معنى قولنا في صدر المقال بالأغلبية الساحقة وأنّ المتمسّكين بقول ابن القاسم في هذه المسألة وتركوا مالكًا وسائر الأئمّة كما قدمنا غافلون وليسوا من الحذاق المنصفين أو هم لا تأمّل لهم ولا إنصاف كما نسب ذلك الخرف الشيخ السعيد أبهلول الذي نسب الأستاذ العلامة المرحوم المكي بن عزوز إلى الزيغ بسبب قوله بالقبض الذي حكمُهُ كما بيّنّا"[1].

المظهرُ الرّابعُ: احتفاؤهُ بشرح الزّرقانيّ على الموطّأ: وقد رأيتُ لأبي يعلى الزواويّ اعتمادًا واعتبارًا للزرقانيّ في ساق مسألة خلافية، هي مسألة القبض والسدل في الصلاة، فإنّهُ في سياق مناقشة القائلين بالسّدل وانتصارهُ لما أخرجه مالك في الموطّأ في القبض، قال أبو يعلى:"... وهذه المسألة لا وجود لها في الكتاب العزيز إنّما هي في السّنّة الفعليّة لا القوليّة إذ لم يردْ حديثٌ بأمر القبض. **وقال شارحُ الموطّأ الزّرقانيّ** ما لفظُهُ: وهو – يعني القبض–: أمرٌ مجمعٌ عليه في هيئة وضع اليدين إحداهما على الأخرى، قالَهُ أبو عُمر في التّقصّي، إلى أن قال: قال ابنُ عبد البرّ: لم يأتِ عن النّبيّ (ص) فيه خلاف، وهُو قول الجمهور والصّحابة والتابعين، **وهو الذي ذكرهُ مالكٌ في الموطأ، ولم يَحكِ ابنُ المنذر غيرَهُ عن مالكٍ**، وروى ابنُ القاسم عن مالك الإرسال. ا هـ. بالحرف. تأمّل عباد الله تلك الأغلبية السّاحقة وتركوها كلّها وأخذوا بقول ابن القاسم كما قُلنَا آنفًا...

وقد وجدنا سنة رسول الله ﷺ قد حكمت بمطلوبيّة القبض في الصلاة بشهادة ما في الموطّأ والصحيحين وغيرهما من الأحاديث السّالمة من الطعن، فالواجب الانتهاء إليها والوقوف عند حدّها والقول بمقتضاها" انتهى ما في البنانيّ.

وقال ابن رشد في بداية المجتهد: "ورأى قوم أنّ هذا الفعل –يعني القبض– من سنن الصلاة وهم الجمهور إلى أن قال: ورأى قوم أنّ الآثار التي أثبتت ذلك اقتضت زيادة على الآثار التي لم تُنقل " ا هـ.

قلتُ: وهو معنى قولنا في صدر المقال بالأغلبية الساحقة وأنّ المتمسّكين بقول ابن القاسم في هذه المسألة وتركوا مالكًا وسائر الأئمّة كما قدمنا غافلون وليسوا من الحذاق المنصفين أو هم لا تأمّل لهم ولا إنصاف كما نسب ذلك الخرف الشيخ السعيد أبهلول الذي نسب الأستاذ العلامة المرحوم المكي بن عزوز إلى الزيغ بسبب قوله بالقبض الذي حكمُهُ كما بيّنّا"[2].

[1]– البلاغ، 1 عدد 211، السنة الخامسة (04 محرم 1350 هـ/ 21 ماي 1931م)، ص 3، عنوان المقال: عنوان المقال: القبض والسدل – في الصلاة أيضًا– ، وقد استفدته ابتداءً من جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، ص 121.

[2]– البلاغ، عدد 211، السنة الخامسة (04 محرم 1350 هـ/ 21 ماي 1931م)، ص 3، عنوان المقال: عنوان المقال: القبض والسدل – في الصلاة أيضًا– ، وقد استفدته ابتداءً من جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، ص 121.

المطلبُ الرابع: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الشّيخ العربي التّبسّي: وبيانها فيما يأتي:

المظهرُ الأوّل: ما يمكنُ أن يُتلَمَّسَ– على وجه الاحتمال–، من حفظه للموطّأ وشرح أحاديث منه: فيُتلمّسُ ذلكَ مِن دُرُوسِ شَرحِهِ الأحاديث النبويّة إلى جانب دروسه في تفسير الآيات القرآنية في مسجد بوسعيد بتبسّة بعد عودته من المشرق، في رمضان وفي غيره من الزّمان، فقد كان يشرحُ أحاديث نبويّة عليها مدار الوعظ الدّينيّ يحتملُ أن يكون بعضها أو جمهرة منها أحاديث الموطّأ، خاصة فيما تعلّق بالأحكام والقرآن والصّيام...

كما لا يُستبعَدُ اعتناؤهُ بالموطأ لأجل أنّ علماء الجمعية قد جعلوا الموطّأ مَصدرًا أساسًا في الاستدلال بأحاديثه على كثير من الأحكام والفتاوى، كونه واحدًا من مصادر السّنّة المعتمدة عند الفقهاء، ولم يتنكّرْ لَهُ أحدٌ.

والذي يزيدُ هذا الاحتمال قُوّةً ما عُرِفَ عن الشّيخ من كثرة حفظه للأحاديث النّبويّة، "حيثُ **كان الشّيخ العربيّ يحفظُ فيها عشرة آلاف حديث صحيح بسندها...**"[1].

المظهر الثاني: دراسة شرح الزّرقاني على الموطّأ: والحقّ أنّني لم أهتدِ لهذا المظهر، ولم أجدْ في تراث الشيخ التبسّي ما يدلُّ عليه صراحةً، حتى وقفتُ على ما يفيدُهُ – في المرحلة الأخيرة من كتابة هذه الورقة العلميّة– عند الدكتور أحمد عيساوي في مُصنّفه:(جهود الشّيخ العربيّ التّبسيّ وآثارهُ الإصلاحيّة) عند حديثه عن المرحلة التّعليميّة الخامسة للشّيخ العربي التبسّي، وقد عنى بها مرحلة انتقاله من تونس إلى مصر، فأفاد في الهامش – تعليقًا على ما ذكرهُ في الصُّلب من اتّصال الشّيخ بالكُتّاب والأدباء والشّعراء والعلماء والفقهاء والمصلحين والسّياسيّين — بما نصّهُ: "دَرَسَ العربيّ الموافقات والاعتصام للشاطبيّ ومفتاح العلوم للسّكّاكيّ ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني والكشّاف للزمخشريّ ومقدّمة ابن الصّلاح **وشرح الزرقاني على الموطّأ** وحاشية الصّاوي على الجلالين وتحفة الأحوذي على صحيح الترمذي وفتح الباري للعسقلانيّ والجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ وغيرها من أمّهات العلوم الدّينيّة والعربيّة. **وقد اصطحبَ هذه الكتب لمّا عاد إلى الجزائر معه وهي موجودة في مكتبته وعلى الكثير منها تعاليقه بخطّ يده، عدا المسروقة والمحجوزة والمُصَادَرة في مراكز أرشيف الإدارة الاستعماريّة**"[2].

والذي ظهرَ لي أنّ الشيخ العربيّ كان معتنيًا بهذه الكتب كونها المصادر المهمة في العلوم التي تلقّاها عن شيوخه في الأزهر الشريف، ولو في مرحلة من مراحل الطلب والتحصيل هناك، ومن ذلك **شرح الزرقاني على الموطّأ.**

وهو الذي حملهُ على اصطحابه وغيرها — كما أفاد الدكتور عيساوي– حينما عاد إلى الجزائر، فإنّ العادة جارية على تقييد الطالب على الكتاب ما يَستفيدُهُ في مجلس الشّيخ الشّارح، أو يقيّدهُ عنه من الفوائد، والله أعلم.

---

[1]– أفادهُ الدكتور أحمدعيساوي في مؤلّفه: جهود الشيخ العربي التبسي وآثارهُ الإصلاحيّة، 1/ 63. ولم يعزهُ لأحدٍ، فلعلّهُ استفادهُ من بعض طلبته الملازمين للشيخ والعارفين به، وربّما كان ذلك منتشرا في وسط طلبته. والله أعلم. ونقلتهُ عن الدكتور عيساوي الدكتورة عقيلة حسين في مؤلّفها: جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين في خدمة الحديث النبويّ الشريف، ص 373.

[2]– جهود الشيخ العربي التبسي وآثارهُ الإصلاحيّة، الدكتور أحمد عيساوي، 1/ 61 (هامش (1)).

المطلبُ الخامس: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الشّيخ مبارك الميليّ: وبيان ذلك فيما يأتي:

المظهرُ الأوّل: احتفاؤُهُ بأحاديث الموطّأ واستشهادُهُ بها في رسالة الشرك ومظاهره: وقد لاحظتُ ذلك من خلال عزوه الأحاديث للموطّأ، واختيار بعض الأحاديث منه في مواضع معيّنة، وبعبارات دالّة على الإكبار بالموطأ والإجلال وقرنه بالصحيح أو بأحدهما، من ذلك ما يلي:

1- قوله رحمه الله: " والاحتياطُ من الضّلال مشروعٌ؛ **ففي الموطأ والصحيحين** عن عائشة ﵂؛ أنّ النّبيّ ﷺ قال: (أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الكَعبَةَ اقتَصَرُوا عَن قَوَاعِدِ إبراهِيمَ .«قَالَتْ:فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا تَرُدَّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَوَلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفرِ؛ لَفَعَلْتُ)"[1].

2- قوله رحمه الله: "**وفي الموطأ وكتاب الحجّ من صحيح البخاري** عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، أنّهُ قال للحجر الأسود: (أما والله؛ إني لأعلم أنّكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنّي رأيتُ النّبيّ ﷺ استَلَمَكَ؛ ما استَلَمتُكَ"[2].

3- قوله رحمه الله: " **وفي الموطأ و مسلم** عن أبي هريرة ﵁ عن النّبيّ ﷺ من حديث قال في خاتمته : وَأَنَا فَرَطُهُم عَلَى الحوضِ؛ فَلَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَن حَوضِي كَمَا يُذَادُ البَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ:أَلَا هَلُمَّ! أَلَا هَلُمَّ!..." [3].

4- قوله رحمه الله: "ففي **الموطّأ والصّحيحين** عن عائشة وغيرها: أنّ آخر ما تكلّم به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم -أنّ قال: (قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ)[4].

5- قوله رحمه الله: " وأمّا السّفر إلى المزارات؛ ففي **الموطّأ** عن أبي هريرة؛ أنه قال: لَقِيتُ بصرة بن أبي بصرة الغفاريّ، فقال :مِن أينَ أَقبلْتَ؛ فقلتُ :مِنَ الطُّور .فقال:لَوْ أدركتُكَ قبلَ أن تَخرُجَ إليه؛ ما خرجتُ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (لَا تُعمَلُ المطِيُّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المسجِدِ الحرَامِ، وَإِلَى مَسجِدِي هَذَا، وَإِلَى مَسجِدِ إِيلِيَّا أَوْ بَيتِ المقدِسِ"[5].

المظهرُ الثاني: احتفاؤُهُ بشرح الزّرقانيّ على الموطّأ: وهو مظهرٌ شاركَ في مباركُ الميليّ بعض زملائه شيوخ الجمعية في احتفائهم به، وقد رأيتُ مواضع تدلُّ على ذلك في رسالة الشرك ومظاهرهُ، هي فيما يلي:

1- قوله رحمه الله: "حكم نسبة الفعل للمخلوق: والحالتان الأوليان هما المحكيتان في الفصل الثامن عن وثنيي الكلدانيين، وعليهما حمل حديث زيد بن خالد الجهنيّ كلّ مَن هَأيناهُ تكلّم عليه؛ مثل أبي بكر بن العربيّ الذي **نقل كلامَهُ الزّرقانيُّ في شرح الموطأ** ..."[6].

---

[1]- رسالة الشرك ومظاهره، ص 149.

[2]- رسالة الشرك ومظاهره، ص 151.

[3]- رسالة الشرك ومظاهره، ص333.

[4]- رسالة الشرك ومظاهره، ص354.

[5]- رسالة الشرك ومظاهره، ص356.

[6]- رسالة الشرك ومظاهره، ص191.

2- قوله رحمه الله: "**قال الزّرقانيّ في شرح الموطأ**: الرّقيةُ المأذُونُ فيها ما كانت باللّسان العربيّ- أو بما يُفهَمُ معناهُ- ويجوزُ شرعًا، مع اعتقاد أنّها لا تؤثّر بذاتها، بل بتقدير الله، والمنهيُّ عنها ما فَقَدَ منها شرط من ذلك"[1].

3- قوله رحمه الله: " **وقال الزرقاني في شرح الموطّأ**: وإنّما حظر البناء على القبور خشية أن يعبد المقبور"[2].

المطلبُ السادس: مظاهر الاعتناء بموطأ مالك عند الشّيخ أبي بكر الحاج عيسى الأغواطيّ: يبرزُ اعتناؤُهُ أكثر فيما عُرف عنه من الاشتغال بشرح الموطّأ بعد استقلال الجزائر، وكان قد خبر مسالك الدّراسة وطرق التدريس، وعانى في الدعوة والإصلاح.

وقد وَقفنا على **خبر شرحه كتابي الطّهارة والصلاة من الموطّأ** دُونَ أن نَقفَ على مادّته، وغاية ما في ذلك ما ذكرهُ الدكتور المبروك زيد الخير في مقالة حول الشّيخ أبي بكر الأغواطيّ، حيثُ قال:"ومن مبادرته الطّيّبة **شروعهُ في شرح الموطّأ للإمام مالك بمسجد الشّاذليّة** ، بأسلوب رائع جذّاب، وتدليل محقّق مدقّق، ولكنّهُ لم يُجاوز بابي الطهارة والصلاة حتى انقطع عن تلك الدّروس بما لحقه من رهق، وما طرأ عليه من مرض، وسرعان ما تلاحقت به العلل بعد خروجه إلى التّقاعد فلزم بيته وركن إلى المطالعة والمذاكرة، وأصبح منزلُهُ ناديًا للزائرين وقبلة للمستفتين، يتردّد عليه الثّلّة من أحبابه وأقرانه ويزورُونَهُ بالعشي والإبكار..." [3].

ومن الباحثين الذين أفادوا بدرس الشيخ في شرح الموطّأ الباحثُ لحسن بن علجية فقد ترجم للشيخ أبي بكر طالبًا من طلبة الشيخ ابن باديس، وقال: " وكان المترجمُ قد شَرَحَ أبوابًا من موطّأ الإمام مالك في دروس مسجديّة"[4].

ولقد كانت النّية قائمة على سؤال الدكتور المبروك زيد الخير حول طبيعة الدّرس ومعالم الشّيخ المنهجية في شرحه على الموطّأ، عسى أن يُفيدَ بما علمهُ، أو يَصفَ ما سَمعهُ، أو يُوردَ ما حُدّثَ به، ولكن ذلك لم يتحقّق بعد، فلعلّهُ مقصدٌ نبلغُهُ لاحقًا، أو علمٌ نحصّلهُ مستقبلاً، فإن أجابَنَا، وبما عندهُ أفادنا، كنّا له شاكرين، محمودين لَهُ جميلَ التّعاوُن ذاكرينَ، وهو أهلٌ لذلك بلا مينٍ، والحمد لله ربّ العالمين.

---

[1]- رسالة الشرك ومظاهره، ص247.

[2]- رسالة الشرك ومظاهره، ص358.

[3]- الشيخ أبو بكر الحاج عيسى ومنهجه التربويّ، الدكتور المبروك زيد الخير، جريدة البصائر (السلسلة الرابعة)، السنة الثانية، العدد 78 (الاثنين 23- 30 شوال 1422/ 07- 14 جانفي 2002)، ص 12، وينظر: أعلام منسية: نابغة الأغواط: العلامة الشيخ أبو بكر الحاج عيسى، سمير سمراد، مقال منشور في مجلة الإصلاح الجزائرية، تصدر عن دار الفضلية للنشر والتوزيع، الجزائر.

[4]- معجم طلبة الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة- الجزائر، منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (د، ط) (2022).

المطلبُ السابع: مظاهرُ الاعتناء بموطّأ مالك عند الشّيخ أحمد حمّاني: وبيانها فيما يأتي:

أوّلا: إكبارُهُ بالموطّأ، وإجلالُهُ لمالك، ودفعُهُ تهمة التّعصّب عنه: أمّا الشيخ أحمد حماني فإنّ أظهر ما يجلّي اعتناءه بالموطّأ ما يجدهُ الباحثُ في تصديره المتميّز لفتاويه، بِنَفَسِ المفتي الفقيه، والمجتهد الحاذق النّبيه، ممّا خطّهُ ببراعه احتفاءً بالموطّأ، وبيانًا لمكانته، وإبرازًا لأثره في المذهب المالكيّ والمذاهب الفقهيّة كلّها، ودفعًا لأفكار الجاهلين في حقّه، ومقالات الهالكين في مُصَنّفِهِ.

وسأسوقُ نَصَّ كلامٍ جليل للشّيخ أحمد حمّاني يدلُّ على إجلاله للموطّأ وصاحبه، وأنّه أوّل مصادر الفقه الإسلاميّ، وتنزيه مالك عن التّعصّب، وأنّه معتمدُ كتب المالكيّة، وأنّ الكتب الفقهيّة في المذاهب الأخرى لم تتنكّر للموطّأ بل اعتمدتهُ.

يقول الشّيخ رحمه الله في بيان ذلك كلّه: "وقد استنبط العلماء قواعد فنّ أصول الفقه من الكتاب والسّنّة، حتّى أصبح فنّا عظيمًا، وعلمًا قائمًا، وأوّلُ مَن خَصَّصَهُ بالبحث وتقعيد قواعده، الإمام مُحَمَّد بن إدريس الشافعيّ المطّلبيّ ﷺ، ثمّ أتمّ بحوثهُ فطاحلُ من كلّ مذهب، فأصبح يسيرًا طلبُهُ على من أراد التبحّر في المعرفة، فمن كان وافر المعرفة بالكتاب والسنة، وفنون العربية، والأصول المستنبطة من ذلك، كان أهل أن يجيب إذا سُئِلَ، وهذا هو المفتي أو المجتهد، ويُعينُه أن يكون قد درس الفروع الفقهية التي اجتهد الفقهاء في وضع الكتب المهمّة فيها، واستنبطوها من الكتاب والسنة، **ومِن أَوَّلِ مَن فَعَلَ ذلك الإمامُ مالك بن أنس ﷺ، أَمَرَهُ بوضعه الخليفة العباسي العظيم أبو جعفر المنصور، روى فيه جانبًا عظيمًا من صحيح الأحاديث، ومن أعمال الصحابة والتابعين،** وقد استشارهُ الخليفة من بعد وضعه أن يحمل الناس على القضاء بما جاء فيه، فأبى مالك ذلك إباءً شديدًا، وقال: "إنّ الصحابة تفرّقوا في الأمصار الإسلامية، وأفتى كلّ منهم بما رُوي عنه، فقد يُخالفُ بعض ذلك ما جاء في الموطّأ"[1].

ولو كان الإمام مالك متعصّبا لقوله ومذهبه لانتهزَ الفرصةَ وترك الخليفة يحملُ النّاسَ على مذهبه، فرضي الله عنهما.

ثانيًا: بيانهُ موقع الموطّأ بين كتب الفقه الإسلاميّ وأصالةُ مصدريّته عند كلّ المذاهب: وهو ما قرّرهُ الشيخ أحمد حمّاني – بعدما نفى تهمة التعصّب عن مالك– بقوله: **"...فالموطّأ أوّل مصادر الفقه الإسلاميّ، وقد اعتمَدَتْهُ كلُّ المذاهب، لفضل الإمام على غيره في الحديث، فهو إمامُ الأئمّة فيه،** روى عنه أبو حنيفة، وهو أكبر منه، وروى عنها الشافعيّ، ولازمه ثلاث سنوات، وأحمد تلميذُ الشافعيّ.

بعد الموطّأ تأتي (المدوّنة)، من رواية الإمام سحنون عن ابن القاسم وغيره، عن مالك، ودرجتها بعد الموطّأ مباشرة، لكنّها أوسع منه في رواية الفروع، وبعد المدوّنة (الموّازية)، لمحمد بن الموّاز المصري، وكتاب ابن حبيب الأندلسيّ (الواضحة)، و(العُتبيّة).

---

[1] – فتاوى الشيخ أحمد حماني، راجع أصولها وصححها ورتّبها وعلّق عليها وخرّج أحاديثها الأستاذ مصطفى صابر، تقديم الدكتور يوسف بلمهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية– الجزائر العاصمة، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، 1/ 28– 29– 30.

وكلّ كتب المالكيّة – التي تقدّم ذكرُ بعضها– اعتَمَدَت على الموطّأ، كالمدوّنة والواضحة والعتبيّة مِن كُتُب المتقدّمين في المشرق والمغرب، **اعتمدت على الموطّأ**، وكتب المتأخرين اعتمدت على هذه المصادر، **كما أنّ الكتب الفقهية في المذاهب الأخرى لن تتنكّر للموطّأ، بل اعتمدتُهُ**، فالإمام مالك هو بحقّ إمام الأئمّة، لا يَضِيرُ بِعُلُوِّ مَنزلَتِهِ مَنزلةُ واحد من الأئمّة، وقد أفتى مالك وهو في عنفوان شبابه، بعد أن أذن له شيوخهُ، وكان يتحرّى في فتواهُ، فإن كان لا يعرف الحكم أجاب بـ: " لا أدري" وقد سُئل في ثمانية وأربعين مسألة، فأجاب في الثّلب فقط، وقال: " لا أدري" في الثّلثين، وكان يلتزم السّنّة، ويعظّمها، ويكرهُ البدعة، ويهجرها، وينشدُ دائمًا:

وَخَيرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً ... وَشَرُّ الأُمُورِ المُحدَثَاتُ البَدَائِعُ

....

ومع ذلك فإنّ مالكًا قد هانت منزلتُهُ عند بعض جهلة عصرنا، فأصبح مُتّهمًا بمخالفة السّنّة، وبالجهل، قال فيه من لا يخاف الله: " الإمام الهالك" وَمَا هَلَكَ إلاّ مثلُ هذا المجهول، تعصّبًا لمذهبه، وإن كان لا مذهب لَهُ، **فالإمام مالك أبعد النّاس عن التّعصّب، وأقرب النّاس إلى السُّنَّة**... "[1].

هذا وفي نهاية هذا العمل لا بدّ أن أؤكّد أنّ أعلامًا كثيرين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لا يزالون مغمورين، لا عرفُ كثير من جهودهم وعنايتهم بالموطّأ وغيره من كتب السنة المشرّفة فضلا عن جهودهم في العوم والميادين الأخرى. ولعلّ الله يُيسّرُ طريق البحث والتنقيب عن أخبارهم والتفتيش عن آثارهم ومآثرهم عسى أن يلحقوا بركب المعرّف بهم، وينضاف الحديث فيهم عريقًا إلى من ذكروا في هذه الورقة العلمية.

[1]– فتاوى الشيخ أحمد حماني، راجع أصولها وصححها ورتّبها وعلّق عليها وخرّج أحاديثها الأستاذ مصطفى صابر، تقديم الدكتور يوسف بلمهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية– الجزائر العاصمة، ط1 (1433 هـ/ 2012م)، 1/ 28– 29– 30.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة المتواضعة مع موضوع الاعتناء بموطّأ الإمام مالك عند أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، من مجلّات الجمعية وجرائدها، وكتاباتهم أو كتابات غيرهم، يمكنُ أن نسجّل جملة من النتائج والأفكار، والملاحظ والأنظار، وهي فيما يلي:

1– لقد كان من مظاهر الاعتناء بموطّأ مالك رفع شأنه والإكبارُ به وقرنه بصحيح الإمام البخاريّ، بل عدّهُ أحيانًا أصحّ كتابٍ بعد كتاب الله تعالى.

2– كان الاعتناء بالاستجازة في الموطأ والإجازة به مظهرًا جليًّا في الاعتناء بالموطّأ عند الشّيخين ابن باديس والإبراهيمي، ولا يستبعدُ الباحثُ الاعتناء بهذا عند غيرهم من أعلام الجمعيّة، ممّن لم نقف على أخبار ونصوص تثبتُ لهم ذلك، خاصّة الشّيخ العربيّ التّبسيّ الذي جمع بين الدراسة في الشام ومصر، وعُرِفَ بالتّلمذة على كبار العُلماء، واشتهرَ بالحفظِ الواسع للأحاديث النّبويّة.

3– لم يفدِ البحثُ – اليوم– بما يفيدُ باعتناء شيوخ الجمعية بحفظ الموطّأ، إلاّ ما ذكرهُ في حقّ الشيخ البشير الإبراهيميّ، واحتملهُ في حقّ الشيخ العربيّ التّبسّيّ أيضًا نظرًا لشهرته بحفظ عشرة آلاف حديث، فلعلّ الموطّأ من محفوظه.

4– كان شرح موطّأ مالك أبرز مظاهر الاعتناء بالموطّأ عند أعلام الجمعيّة، فقد رصد البحث أخبار شرح ابن باديس لَهُ في قسنطينة، وشرح الإبراهيميّ في سطيف وتلمسان، وشرح تلميذه الألمعيّ أبي بكر الأغواطّيّ.

5– ليس بين أيدينا من الأخبار ما يفيدُ بختم الشيخ الإبراهيميّ للموطّأ شرحًا، ولكن يبقى الأمر محتملاً، مادام قد شرع في شرحه مرّتين، وختم صحيح مسلم وجامع الترمذيّ.

6– كان الاحتفاء ببعض شروح الموطّأ مظهرًا من مظاهر الاعتناء به، وهو بارزٌ عند ابن باديس من خلال اعتنائه بالقبس والمسالك كلاهما لابن العربي، وكذا احتفاء ابن باديس وأبو يعلى الزواوي والعربي التبسّيّ ومبارك الميليّ بشرح الزّرقاني على الموطّأ.

7– كان الموطّأ كثير الحضور في أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في سياق الاستدلال بأحاديثه، والانتصار له والدفاع عنه، والتذكير بمكانته بين كتب السّنة والفقه، واعتبار منهجه في الترتيب والاستدلال، فتلكَ مظاهر حاضرة في كتابات ابن باديس وأبي يعلى الزواوي، ومبارك الميليّ وهي أكثر ظهورًا في فتاوى الشيخ أحمد حمّاني وتقريراته حول الفتوى والإفتاء والاجتهاد في تصديره لتلك الفتاوى.

8– كانت برمجة الموطّأ في مادّة الحديث النّبويّ لطلبة ابن باديس إحدى أهمّ مظاهر الاعتناء بموطأ مالك، وتأكيد مكانته بين كتب السُّنّة المشرّفة، واعتبار عمل أهل الغرب الإسلاميّ دراسةً وتدريسًا.

9– يظهرُ للباحث من خلال هذا البحث أنّ جمعيّة العلماء كانت تختارُ في عملها الإصلاحيّ أن تشغل الناس بهدي القرآن من خلال تفسيره وبيان معانيه، وبهدي السنّة النبويّة المطهّرة من خلال شرح مدوّناتها الصحاح، بدءًا بالموطّأ والبخاريّ وغيرهما.

10- إن كانت بعض مظاهر الاعتناء بالموطّأ أظهر عند ابن باديس أو الإبراهيميّ ثمّ احتفلَ بهم غيرُهُم، وأثنى عليهم ثناءً عظيمًا في مناسبات ختم شروحهم، فيعني ذلك أنّ الاعتناء بالموطّأ اعتناءٌ جماعيٌّ، يمثّلُ مَسارَ الإصلاح عند أعلام الجمعية، ويدلُّ على مبدأ العمل الجماعيّ، ويشهدُ بتكامُل الأدوار في جلائل الأعمال، أثناء الاستدمار وبعد الاستقلال.

11- لاحظَ الباحثُ اقترن الموطّأ بالصحيحين أو بأحدهما عند جمهرة من أعلام الجمعية، وهو مظهرٌ من مظاهر إجلال الموطّأ ورفعه على سائر المصنّفات الحديثيّة، وثقته بصحّة أحاديثه.

هذا وإنّي أوصي الباحثين بتوسيع البحث في الموضوع من خلال ليشمل أعلامًا آخرين لا تزالُ إسهاماتهم في خدمة الموطأ والعناية به مغمورة، وكذا البحث في جهود تلاميذ الجمعية الذين توزّعوا وتفرّقوا في ربوع الوطن سواء كانت متعلّقة بالموطّأ أو بغيره من كتب السّنة المشرّفة.

وصلّى الله على نبيّنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع:

1– آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، جمع وتحقيق عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1 (عام 1388 هـ / 1968 م).

2– آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيميّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط1 (1997م).

3– إجازات حديثية جزائرية (وضمنها إجازة علي البودليميّ التلمساني الجزائريّ للشيخ العيفة العياضي السّطيفي الجزائريّ)، اعتنى بها مصطفى ضيف، دار التوفيقية للنشر والتوزيع ، المسيلة–الجزائر، ط1 (1433 هـ/ 2012م).

4– أعلام منسية: نابغة الأغواط: العلامة الشيخ أبو بكر الحاج عيسى، سمير سمراد، مقال منشور في مجلة الإصلاح (تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ومديرها توفيق عمروني، (تصدر في الجزائر كلّ شهرين).

إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ مُحَمَّد الصالح رمضان، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان– الجزائر، طبعة 2010 .

5– البلاغ الجزائري، (صحيفة علمية، إرشادية، داعية) تحرّرها نخبة من أبناء الجزائر شعارهم (نحن مسلمون قبل كلّ شيء)، مديرها وصاحب امتيازها الخضر عمروش، (الجزائر).

تاريخ الجزائر الثقافي، الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار البصائر للنشر والتوزيع– الجزائر، طبعة خاصة (2007 م).

6– ثبت الأمير الكبير، وهو العلامة المتفنن أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد السنباوي المالكي الأزهري المعروف بالأمير الكبير، تحقيق مُحَمَّد إبراهيم الحسين، دار البشائر الإسلامية، بيروت– لبنان (د، ط).

7– جريدة البصائر (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين)،المدير المسؤول ورئيس التّحرير مبارك بن مُحَمَّد الميلي، صاحب الامتياز مُحَمَّد خير الدّين، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1(1426هـ/ 2005 م).

8– جريدة النّجاح، جريدة يوميّة إخبارية وطنية حرّة، مدير الجريدة وصاحب امتيازها عبد الحفيظ بن الهاشميّ، رئيس التحرير مامي إسماعيل، تصدر في قسنطينة.

9– جهود أبي يعلى الزواوي في الفقه والأصول، أبو بكر صديقي، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية، تخصص فقه وأصول، إعداد الطالب بوبكر صديقي، إشراف الأستاذ الدكتور مسعود فلوسي، كلية العوم الإسلامية– قسم الشريعة، جامعة الحاج لخضر – باتنة 1 (1437– 1438 هـ/ 2016– 2017م).

10– جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين في خدمة الحديث الشريف، د. عقيلة حسين، دار الوعي للنشر والتوزيع رويبة6 الجزائر، ط1 (1334 هـ/ 2012م).

11– الدّرّ النّفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم، بيروت– لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م).

12– الدر النفيس في إجازات ومرويات الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار ابن حزم، دار ابن حزم، بيروت– لبنان، ط1(1435 هـ/ 2014م).

13– رسالة الشرك ومظاهره، للشيخ مبارك بن مُحَمَّد الميلي، تحقيق وتعليق أبي عبد الرحمن محمود ، دار الراية للنشر والتوزيع ، ط1 (1422 هـ/ 2001م).

14– سجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام "نادي الترقّي" بالجزائر، دار الكتب، الجزائر، جمعه الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيميّ، ط1 (1963م).

15– الشيخ أبو بكر الحاج عيسى ومنهجه التربويّ، الدكتور المبروك زيد الخير، جريدة البصائر (السلسلة الرابعة)، العدد 78، (2002).

16– الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الدكتور تركي رابح، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، الجزائر، ط5 (1422 هـ/ 2001م) مزيدة ومنقحة).

17– فتاوى الشيخ أحمد حماني، راجع أصولها وصححها ورتّبها وعلّق عليها وخرّج أحاديثها الأستاذ مصطفى صابر، تقديم الدكتور يوسف بلمهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، ط1 (1433 هـ/ 2012م).

18– فهرس أعلام المفسرين للقرآن الكريم عبر العصور الإسلامية (ضمن الأعمال الكاملة للشيخ الشيخ الإمام الحواس بوسنّة السّطايفيّ، دار كنوز الرشيد، الجزائر، طبعة خاصة (2015م).

19– مجلة الشّهاب، مجلّة إسلاميّة جزائريّة شهريّة تبحث في كلّ ما يرقّي المسلم الجزائريّ، لمنشئها الشيخ عبد الحميد بن باديس، أُنشئت سنة 1343 هـ، تصدر بقسنطينة في كلّ شهر قمريّ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 (1421 هـ/ 2001 م).

20– مذكرات الشيخ مُحَمَّد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د، ط).

21– معجم طلبة الإمام عبد الحميد بن باديس، لحسن بن علجية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة– الجزائر، منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (د، ط) (2022).

22– مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الإمام أبي يعلى الزواوي)، جمع وإعداد الدكتور أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى ، للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة – الجزائر (ط، د).

23– الموطّأ، تحقيق مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات، ط1 (1425 هـ / 2004 م).